المدرسة القرآنية

السنن التاريخية في القرآن

السيد محمد باقر الصدر

أعاد صياغة عباراته وترتيب أفكاره

الشيخ محمد جعفر شمس الدين

بسم الله الرحمن الرحیم

السنن التاریخیه فی القرآن

کاتب:

محمد باقر صدر

نشرت فی الطباعهٔ:

مجله حوزه

رقمی الناشر:

مرکز القائمیهٔ باصفهان للتحریات الکمبیوتریهٔ

الفهرس

السنن التاريخية فى القرآن

اشارة

سرشناسه : صدر، محمدباقر، ۱۹۷۹ - ۱۹۳۱

عنوان و نام پدیدآور : السنن التاريخيه فى القرآن/ محمدباقر الصدر؛ اعادصياغه عباراته و ترتيب افكاره محمدجعفر شمس‌الدين

مشخصات نشر : [بيروت].

مشخصات ظاهرى : ص ۱۷۵

وضعيت فهرست نويسى : فهرستنويسى قبلى

يادداشت : عربى

يادداشت : بالاى عنوان: المدرسه القرانيه.

يادداشت : كتابنامه به‌صورت زيرنويس

شماره كتابشناسى ملى : ۱۹۰۵۳۲

منهج الباقر فى التفسير

د. حسن عاصى فى الحديث عن السيد محمد باقر الصدر، تتذكر اولئك المفكرين الموسوعيين الذين حذقوا المعرفة بشتى ضروبها: فلسفة، فقها، سياسة، و حتى تاريخا و منطقا. نتذكرهم فى عصر اتسم بالتخصص و العمق إلى درجة بات متعذرا معها على الباحث الاحاطة بمعارف خارج دائرة تخصصه و اهتمامه.

نتذكر اولئك المفكرين امام تعدد معارف الشهيد الصدر و غزارة انتاجه فى الفلسفة، فى الاقتصاد، فى المنطق، فى الاجتماع، ...، و حتى فى التاريخ خصوصا اذا ما قيس هذا التراث بقصر العمر التى لم يتح لسيدنا مواصلة هذا النتاج القيم، و بلورة نظريته و مفاهيمه على رغم وضوح افكاره و جلاء طروحاته. هذه المعارف نجدها فى مؤلفات «۱» قائمة بذاتها، كما نجدها فى ثنايا خطبه و رسائله و محاضراته.

لا نطمح فى صفحاتنا هذه إلى تناول فكر الشهيد الصدر بمضامينه و طروحاته، لأنها اضيق من ان تتسع لذلك. على امل ان تكون نظريته موضوع دراسات و أبحاث تفى الرجل حقه، و ترتقى بالبحث إلى مستوى يعادل اهمية تلك النظرية و ابداع ذلك المفكر.

موضوعنا فى هذه الصفحات هو منهج الشهيد الصدر فى التفسير. نتناول

---

(۱) من هذه المؤلفات فلسفتنا، اقتصادنا، الاسس المنطقية للاستقراء، .. و قد طبعت هذه المؤلفات طبعات عدة- دار التعارف للمطبوعات.

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۶

فهمه لتفسير القرآن، رأيه فى التفاسير السابقة، وظيفة التفسير و هدفه، و من ثم قابليته للحياة. و اذا كانت التجربة هى المعيار فى العلوم التجريبية، فان المقارنة هى المعيار فى العلوم الانسانية. من هنا قدمنا للحكم على تفسير الشهيد الصدر بمهاد نستعرض فيه ماهية التفسير و شئونه، مقياسا نقارن به ما وصلنا إليه فى دراسة منهج الشهيد الصدر و تقييم ذلك المنهج.

و اذا كان الشهيد الصدر قد عرف بفلسفته و اقتصاده و منطقه، فان تفسيره لا يقل اهمية عن كل ذلك، لا بل قد يكون الأكمل و الأرقى من خلال استناد كل نظرياته و طروحاته على ذلك التفسير الذى، كما سنرى، يتجاوز ما عداه من تفاسير: انه تفسير متحرك

یواکب الحیاهٔ و یسیر مع الزمن، لیکسب النظریهٔ القرآنیهٔ قیمومهٔ تجابه ما یتحداها من نظریات و أفکار.

ما یطالعنا فی استعراض مؤلفات الشهید الصدر هذه ال «نا» التی الحقها بفلسفتنا، و اقتصادنا، و مجتمعنا «۱». هذه ال «نا» التی تحدد الهویهٔ و الانتماء:

الهویهٔ، الاسلام العقیدهٔ و الفکر. و الانتماء، الحضارهٔ و التراث.

فالباقر یرمی من خلال تلک التسمیهٔ إلی الرد علی التحدی الذی جوبه به الاسلام، و الفهم الخاطئ المتعمد لروح الاسلام حضارهٔ و تراثا و ناموسا للحیاهٔ.

فالانسان، کما فهمه الشهید الصدر، خلیفهٔ اللّه فی الأرض: «إِنِّی جاعِلٌ فِی الْأَرْضِ خَلِیفَهً» «۲»، و اللّه هو الهدف الأسمی و المثل الأعلی للانسانیهٔ جمعاء. وقف الشهید الصدر امام استخلاف اللّه للانسان و ائتمانه فی الأرض، فساءه واقع ذلک الانسان یترنح قلقا أمام قدسیهٔ الخلافهٔ، و یتلوی ضیاعا امام شرف الأمانهٔ. فقام یذکر الانسان بانسانیته املا بالارتقاء بتلک الانسانیهٔ من

---

(۱) هذا المؤلف لم یر النور، یشیر الیه المؤلف فی مقدمهٔ کتابه «اقتصادنا» دار التعارف للمطبوعات) ط ۱۷، ص ۲۷.

(۲) البقرهٔ: ۳۰

السنن التاریخیهٔ فی القرآن، ص: ۷

دنس الواقع إلی قدس الخلافهٔ و شرف الأمانهٔ. فکانت دعوته إلی الانفتاح علی رسالهٔ الاسلام الحقیقیهٔ، و ادراک وحدویهٔ طریق الخلاص بالانضواء تحت لواء الاسلام نظاما و سلوکا و ممارسهٔ.

الاسلام، برأی الباقر، وحده طریق الخلاص بعد ما عانت الانسانیهٔ، و ما زالت، من الوان القلق و التذبذب بین تیارین ملغوم کلاهما بقنابل الذرهٔ و أسالیب الدمار، الاسلام الباب الوحید الذی لم یبق غیره من ابواب السماء، واحهٔ وحیدهٔ فی صحراء العصر.

خاب الأمل فی کل من المارکسیهٔ و الرأسمالیهٔ، علی رغم اخلاص الکثیرین لهاتین الایدیولوجیتین اللتین جعلتا انسان العصر غنیا شقیا و متمدنا وحشا.

العلم کذلک لم یفلح فی ان یکون بدیلا کما کان یدعی، و انما أطل علی البشریهٔ بالقنبلهٔ الذریهٔ الفتاکهٔ. فالعلم بدل ان یستأصل شأفهٔ القلق من خاطر الانسان رسخ ذلک القلق، و أخضع الانسان عبدا للقوهٔ و رأس المال.

خاب الأمل فی الاشتراکیهٔ و الرأسمالیهٔ، و فشل العلم، و لم یعد غیر الاسلام وحده طریقا للخلاص؛ و لکن ای اسلام؟ بالطبع لیس الاسلام التقلیدی الجامد. الاسلام کما یفهمه الشهید الصدر و کما یدعو إلی فهمه فهما متکاملا، فیری الاسلام بالاسلام، ثقافهٔ تستند إلی تحلیل تنقیهٔ من کل ما شابه فی عهود الجهل و الظلام.

هکذا فهم الشهید الصدر الاسلام، فهما کلفه کثیرا حتی حیاته، و من ذلک الفهم انطلق فی تفسیره للقرآن، و استند فی ذلک التفسیر لطرح کافهٔ نظریاته الفلسفیهٔ و الاقتصادیهٔ و المنطقیهٔ و الاجتماعیهٔ، و اعتبار ذلک التفسیر معیارا لصحهٔ و صدق کل تلک المفاهیم و الأفکار.

مدخل إلی التفسیر: الحدیث عن التفسیر یطول و یتشعب، و لا تعنینا تفاصیله الا بقدر ما تشکل مهادا نبسط علیه تفسیر الشهید الصدر، و مقیاسا

السنن التاریخیهٔ فی القرآن، ص: ۸

نقارن به افکاره، تمهیدا لتقییمه و الحکم علیه.

تعددت تعریفات التفسیر و دار الکلام بینه و بین التأویل، لکن التعریفات علی تعددها التقت عند روحیهٔ واحدهٔ؛ انه «علم یبحث عن کیفیهٔ النطق بألفاظ القرآن و مدلولاتها و احکامها الافرادیهٔ و الترکیبیهٔ، و معانیها التی تحمل علیها حالهٔ الترکیب و تتمات ذلک» «۱».

و الحاجة إلى التفسير املتها دواع عدة منها:

- خصوصية الخط العربى الذى يقدم هيكله المرسوم مقادير صوتية مختلفة. ففى الآية «هُوَ الَّذِی یُرْسِلُ الرِّیاحَ بُشْراً» «۲» يصح ان تقرأ نشرا بدل بشرا. كما فى الآية «وَ ما كانَ اسْتِغْفارُ إِبْراهِیمَ لِأَبِیهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إِیَّاهُ» «۳»؛ هنا قد تقرأ أباه بدلا من إياه. على ان هناك بعض الآيات التى تؤدى فيها هذه الاختلافات البسيطة إلى دلالات متناقضة، كما فى الآية: «يا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلى بارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذلِكُمْ خَیْرٌ لَكُمْ» «۴» فى هذه الآية قد نقرأ «أقيلوا انفسكم» بدل «اقتلوا» «۵»- دعوة القرآن فى كثير من آياته إلى الاجتهاد فى استنباط المعانى المحتجبة وراء ظاهر الآيات: «فَاعْتَبِرُوا یا أُولِی الْأَبْصارِ» «۶»؛ «وَ ما یَعْلَمُ تَأْوِیلَهُ إِلَّا اللَّهُ» «۷»، «هَلْ یَسْتَوِی الَّذِینَ یَعْلَمُونَ وَ الَّذِینَ لا یَعْلَمُونَ» «۸» «لِیَدَّبَّرُوا آیاتِهِ وَ لِیَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ» «۹» ... و غيرها كثير مما يدعو للتأمل و الكشف

---

(۱) التوحيدى، ابو حيان: البحر المحيط (القاهرة، ۱۳۲۸ ه)، ج ۱، ص ۱۳.

(۲) الاعراف: ۵۷.

(۳) التوبة: ۱۱۴.

(۴) البقرة: ۵۴.

(۵) قا: جولد تسيهر: مذاهب التفسير الاسلامى، ترجمة عبد الحليم النجار (القاهرة، ۱۹۵۵)، ص ۸.

(۶) الحشر: ۲.

(۷) آل عمران: ۷.

(۸) الزمر: ۹.

(۹) ص: ۲۹.

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۹

و التفكر فى ما يكمن وراء ظاهر الآيات.

- كما فى الآيات، دعت الأحاديث كذلك إلى معرفة ما وراء الآيات: «ما نزل من القرآن آية إلا و لها ظهر و بطن، و لكل حرف حد و مطلع».

- اختلاف العلماء فى المقدار الذى بيّنه النبى لأصحابه من القرآن: منهم من ذهب الى أن النبى بيّن لأصحابه كل معانى القرآن، كابن تيمية «۱» مثلا.

حجته فى ذلك الآية:

لِتُبَیِّنَ لِلنَّاسِ ما نُزِّلَ إِلَیْهِمْ «۲» فى حين ذهب آخرون إلى أن النبى لم يبين لأصحابه من معانى القرآن الا القليل «۳»، فمن اقتصر على المنقول اليه فقد ترك كثيرا مما يحتاج اليه، و من أجاز لكل أحد الخوض فيه فقد عرضه للتخليط «۴».

- اما العامل الأكثر اهمية فى وجوب التفسير، فهو انضواء شعوب غير عربية تحت لواء الاسلام، تجهل لغة القرآن. هذه الشعوب بحاجة لمعرفة دينها و مبادئه. يضاف إلى ذلك ان صلة الاسلام بالحياة، و منزلة القرآن من حيث هو مرجع للمسلمين فى مختلف شئونهم، جعلت تدرّج الحياة ينعكس جليا على القرآن، و يوجه التفسير وجهات متعددة استلزمتها متطلبات الحياة و ضرورات التجديد «۵».

و أمام تفسير الشهيد الصدر، نضيف إلى هذه الدواعى واحدا ذا وجهين:

---

(۱) ابن تيمية: مقدمة فى اصول التفسير (القاهرة ۱۳۹۷ ه-)، ص ۵.

(۲) النحل: ۴۴.

(۳) السیوطی، جلال الدین: الاتقان (القاهرهٔ ۱۹۶۷)، ج ۱، ص ۳- ۴.

(۴) الراغب الاصفهانی: مقدمهٔ التفسیر (القاهرهٔ ۱۳۲۹ ه-) ص ۴۲۲- ۴۲۳.

(۵) قا: عاصی، حسن: التفسیر القرآنی و اللغهٔ الصوفیهٔ فی فلسفهٔ ابن سینا المؤسسهٔ الجامعیهٔ للدراسات و النشر (بیروت، ۱۹۸۴)، ص ۱۵- ۱۶.

السنن التاریخیهٔ فی القرآن، ص: ۱۰

- اعادهٔ النظر فی کل التفاسیر السابقهٔ و التی یضعها السید محمد الباقر تحت عنوان التفسیر التجزیئی، ادت إلی سلبیهٔ ساهمت، من خلال التناقض و التباین، فی بروز غیر مذهب فی الاسلام.

فالتفسیر اتاح لکل مفسر تبریر مذهبه و اتجاهه من خلال اسناد رأیه إلی القرآن، مثل مسائل الجبر و الاختیار و ما عداها «۱».

- وجوب ایجاد بدیل لهذه التفاسیر هو المنهج الموضوعی الذی یقترحه السید الشهید الصدر لتلافی سلبیهٔ التفاسیر السابقهٔ من جههٔ، و الکشف عن قیمومهٔ النظریهٔ القرآنیهٔ من جههٔ ثانیهٔ؛ و مواکبهٔ تلک النظریهٔ للحیاهٔ فی شتی المیادین من خلال استنطاق الآیات و فهمها فهما علمیا و تحلیلها تحلیلا یواکب الحیاهٔ فی ما یجابهها من نظریات و أفکار تطرح بدائل عنها «۲».

تدرج التفسیر و أنواعه: زمن النبی لم تکن هناک حاجهٔ للتفسیر، حیث کان (ص) یبین لأصحابه کل ما یحتاجون الیه من دلالات الآیات. اتی بعده الصحابهٔ یفسرون بما أثر عنه فسمی تفسیرهم بالمأثور او ما عرف بأسباب النزول. تجدر الاشارهٔ هنا إلی انه حتی عهد متقدم من القرن الثانی للهجرهٔ کان ینظر إلی التفسیر بعین الارتیاب، حتی ان الممثلین الأتقیاء للمصالح الدینیهٔ وضعوا علامات الانذار و التحذیر، فقد رفض عبیدهٔ بن قیس العوفی (ت ۷۲ ه-)، من اصحاب عبد اللّه بن مسعود، ان یذکر شیئا عن اسباب النزول قائلا: «علیک باتقاء اللّه و السداد، فقد ذهب الذین کانوا یعلمون فیم انزل القرآن» «۳».

بعدها اخذ التفسیر یستند إلی القصهٔ و الأسطورهٔ، و اذا ورد التحذیر من

---

(۱) الصدر، محمد باقر: المدرسهٔ القرآنیهٔ، دار التعارف للمطبوعات.

(۲) نفسه- فی فصول متفرقهٔ.

(۳) ابن سعد: الطبقات، ج ۶، ص ۶۷.

السنن التاریخیهٔ فی القرآن، ص: ۱۱

التفسیر فلأن القرآن لا یجوز تفسیره بالرأی، ای بالتفکیر الذاتی، و لا بالهوی ای المیل الاختیاری.

بعد ذلک تدرج التفسیر، حیث ان علوما عقلیهٔ و نقلیهٔ وجهت التفسیر وجهات مختلفهٔ، اضافهٔ إلی ان مقاصد و أغراضا سیاسیهٔ فی الحیاهٔ العملیهٔ ساهمت فی توجیه التفسیر، فترکت کتبا و مناهج عدیدهٔ اثرت فی مجری الحیاهٔ و الثقافهٔ الاسلامیهٔ تأثیرا قویا و فعالا.

فکانت الوان من التفسیر حیث ان کل واحدهٔ من الفرق الاسلامیهٔ کانت تتجه لتصحیح عقائدها علی النص القرآنی و تتخذ هذا النص سندا علی موافقهٔ مبادئها للاسلام، و مطابقتها لما جاء به الرسول. و نتج من ذلک انواع من التفسیر نذکر منها:

- التفسیر بالماثور: هذا التفسیر، سبقت الاشارهٔ الیه، فیه یستند المفسر إلی ما جاء فی القرآن أو السنهٔ أو کلام الصحابهٔ. من عیناته تفسیر الامام البغوی «۱».

- التفسیر بالرأی: حیث یجتهد المفسر برأیه بعد ان تکون قد اجتمعت الیه شروط عدهٔ، منها معرفهٔ کلام العرب و الوقوف علی اسباب النزول و غیرها من شرائط التفسیر. من عیناته تفسیر الرازی (ت ۵۴۴ ه-) «۲».

- التفسیر الفقهی: برز هذا اللون من التفسیر عند ما تعقدت العلاقات الانسانیهٔ؛ و لما کانت الأحکام الفقهیهٔ متصلهٔ بمصالح العباد فی

حياتهم و آخرتهم، برزت الحاجة إلى هذا اللون من التفسير، امام تعدد الاتجاهات و الاجتهادات. من عينات هذا التفسير تفسير الجصاص «۳».

- التفسير الصوفى: هذا التفسير ينحصر بجمع ما تيسر من آراء الصوفية

---

(۱) قا: محمود، منيع عبد الحليم: مناهج المفسرين (القاهرة- بيروت ۱۹۷۸) ص ۱۳۱.

(۲) نفسه، ص ۱۴۵.

(۳) نفسه، ص ۶۱.

حول آيات القرآن. من عيناته تفسير السلمى «۱».

- التفسير الفلسفى: هو تفسير عمودى يغوص إلى عمق الآية، ليستخرج منها ما يوافق فلسفة المفسر و عقلانيته، حيث يستند إلى الفكر و المنطق. من عيناته تفسير ابن سينا «۲».

و هناك كذلك التفاسير العلمية و الاجتماعية و ... و ...

قيمة هذه التفاسير: هذه التفاسير، على تعددها و تباين آراء اصحابها، تلتقى عند قاسم مشترك يجمع بينها. إنها آحادية الجانب؛ تعبير عن حاجة، و سند لنظرية. و كما انها تبقى خاضعة للمبادئ التى تتحكم فى كل تفسير غير مقيد بالتاريخ و الظروف «۳».

طبيعة التفسير عند الشهيد الصدر و الحاجة إليه: كان التفسير فى البداية يستهدف فهم مدلول اللّه، ذلك المفهوم و ان بدا واضحا متيسرا للكثير من الناس، إلا انه لم يبق على وضوحه بسبب تعقد اللفظ من حيث المعنى، و من ثم ازدياد الفاصل الزمنى. و كما سبقت الاشارة، فقد نتج عن ذلك تراكم القدرات و التجارب و تطور الأحداث و الأوضاع «۴» .. و لم يبق التفسير التجزيئى يقتصر على آيات دون غيرها، و انما توسع و تكامل ليشمل القرآن بأكمله، بدءا من سورة الفاتحة حتى سورة الناس.

و السؤال الذى يطرح نفسه هنا: طالما ان النبى اعطى النظرية القرآنية بمجملها، فما هى الحاجة إلى استحصال هذه النظريات؟

على ذلك يجيب الشهيد الصدر بأن انسان العهود الاسلامية لم تكن لديه اى حاجة للوقوف على هذه النظريات القرآنية، كان يعيشها، يعرفها معرفة

---

(۱) نفسه، ص ۷۳.

(۲) التفسير القرآنى و اللغة الصوفية فى فلسفة ابن سينا، ص ۲۴ و ۲۵ بعدها.

(۳) نفسه، ص ۲۱.

(۴) المدرسة القرآنية.

اجمالية ارتكازية من خلال الواقع الاسلامى القائم، ذلك الواقع الذى تنتفى فيه اى حاجة للانسان فى معرفة النظريات و المفاهيم.

و لكن الحاجة إلى استخلاص تلك النظريات و المواقف تبرز اليوم مع بروز النظريات الحديثة، من خلال التفاعل بين انسان العالم الاسلامى و انسان العالم الغربى بكل ما يملك من رصيد عظيم و ثقافة متنوعة فى مختلف مجالات المعرفة البشرية «۱». هذا التفاعل الذى وجد فيه المسلم نفسه امام نظريات كثيرة فى مختلف مجالات الحياة؛ رأى نفسه ملزما فى تحديد موقف الاسلام من هذه النظريات؛ و كانت وسيلته استنطاق نصوص الاسلام، قرآنا و سنة و تراثا، و التوغل فى اعماق هذه النصوص ليصل إلى مواقف الاسلام الحقيقية سلبا و إيجابا؛ و لكى يكتشف نظريات الاسلام التى تعالج المواضيع عينها، التى عالجتها التجارب البشرية الذكية فى شتى

مناحى الحياة.

التفسير فى مفهوم الشهيد الصدر: يميز السيد محمد باقر الصدر بين منهجين فى التفسير: التفسير التجزيئى و التفسير التوحيدى الموضوعى، هذان المنهجان على رغم تباينهما، متكاملان.

أ- التفسير التجزيئى: يقصد السيد محمد باقر الصدر بهذه التسمية تناول جزء من القرآن: يأخذ الآية منفصلة و يعمد إلى تفسيرها. قد يحتاج المفسر هنا اللجوء إلى آيات اخرى و قد يقود ذلك إلى استخلاص دلالات للقرآن، الا انها تبقى بنظرة تجزيئية: معارف و مدلولات، تناثر و تراكم عددى، من دون اى ارتباط يقودنا إلى تحديد نظرية قرآنية لكل مجال من مجالات الحياة «۲».

شيوعه: شاع هذا التفسير و سيطر على الساحة قرونا عديدة. ابرز العوامل التى ساهمت فى شيوعه النزعة الروائية و الحديثية للتفسير. فالتفسير فى

---

(۱) نفسه.

(۲) نفسه.

البداية كان شعبة من الحديث: ماثورا كان او ما عرف باسباب النزول. كان الحديث الاساس الوحيد تقريبا، يضاف اليه بعض المعلومات اللغوية و الادبية و التاريخية «۱».

قيمة التفسير التجزيئى و اثره: على رغم شيوع هذا المنهج فى التفسير، فان اثره، برأى السيد الصدر، كان سلبيا، من نتيجته التناقض و التباين اللذين كانا سببا فى بروز غير مذهب فى الاسلام. اتاح المنهج التجزيئى لكل مفسر تبرير مذهبه و اتجاهه من خلال اسناد رأيه إلى القرآن، مع ما يتبع ذلك من جمع للانصار و الاشباع حول المفسر «۲» و لعل المسائل الكلامية من جبر و اختيار و ما عداها هى خير مثال على صحة ما نقول.

ب- التفسير التوحيدى الموضوعى: يحرص السيد الصدر على اظهار ما يرمى اليه من مصطلح الموضوعية لئلا يلتبس بين الدلالة التى يعطيه اياها و بين الدلالة الشائعة. فيوضح انه لا- يقصد الموضوعية بدلالتها مقابل الذاتية، و انما الموضوعى نسبة إلى الموضوع. فالتفسير الموضوعى هو محاولة القيام بدراسة المواضيع القرآنية عقائدية كانت، اجتماعية او كونية و ما إلى ذلك. كأن تتناول مثلا عقيدة التوحيد فى القرآن، فتكون موضوعا يتجه التفسير إلى استنباطه من مدلولات الآيات و معانيها. كذلك النبوة، الاقتصاد، ...، .. «۳».

غاية التفسير الموضوعى و قيمته: بخلاف التفسير التجزيئى يرمى التفسير الموضوعى إلى تحديد موقف نظرى للقرآن، و بالتالى للرسالة الاسلامية من خلال تناوله لواحد من مواضيع الحياة و الكون.

نقطة الانطلاق فى هذا الاتجاه هى الواقع و الحياة: يبدأ المفسر من الواقع و ينتهى إلى القرآن بخلاف التفسير التجزيئى الذى يبدأ بالقرآن و ينتهى

---

(۱) نفسه.

(۲) نفسه.

(۳) نفسه.

بالقرآن، مقفل، منعزل عن واقع الحياة «۱».

التفسير الموضوعى تفسير جدلى يمنح القرآن قدرة على القيمومة، على العطاء الدائم و الابداع فى مواكبة الحياة، فى حين تقصر اللغة عن الاتجاه بخط مواز، طاقة اللغة محدودة بخلاف كلمات اللّه:

«قُلْ لَوْ كانَ الْبَحْرُ مِداداً لِكَلِماتِ رَبِّى لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أنْ تَنْفَدَ كَلِماتُ رَبِّى» «۲».

المصطلحات التى نقف عليها فى الكلام على هذا الاتجاه فى التفسير:

الحوار، الاستنطاق، الجدلية، مواكبة الحياة. هذه المصطلحات ترد فى صلب أية نظرية معاصرة، و هذا ما يضع النظرية القرآنية فى مكانها الطبيعى فى مجابهة التيارات و الافكار السائدة، خصوصا عند ما ينطلق من الواقع و الحياة، إلى تزوده بخبرات التجربة البشرية.

موضوعية التفسير تكسب أفقا اوسع و عطاء ارحب و اكثر من خلال انطلاقة من التجربة البشرية، يزداد غنى بما تقدمه تلك التجربة من مواد. من هنا فانه السبيل الوحيد للحصول على النظريات الاساسية للاسلام تجاه مواضيع الحياة المختلفة.

شروط التفسير فى كل من المنهجين: من المتعارف عليه فى اوساط المفسرين ان شروط التفسير، لدى توافرها، تعطى المفسر الحق فى تفسيره، او لا يجوز ان يدعى المعرفة اى انسان. المفسر يجب ان تتوفر فيه شروط عددها التفتازانى فى خمسة عشر علما لا يكون مفسرا الا من توفرت فيه «۳» اللغة، النحو، التعريف، الاشتقاق، المعانى، البديع، القراءات، اصول الدين، الفقه، اسباب النزول، القصص، الناسخ و المنسوخ، الحديث إضافة إلى

---

(۱) نفسه.

(۲) الكهف: ۱۰۹.

(۳) قا: القاموس الاسلامى (القاهرة ۱۹۶۳)، م ۱، مادة تفسير، ص ۴۸۱.

الموهبة و الاستعداد الشخصى.

اما عند الباقر، فكما تفسيره كذلك هى شروط تفسيره مختلفة: ان يحمل المفسر كل تراث البشرية الذى عاشه، يحمل افكار عصره، يحمل المقولات التى تعلمها فى تجربته البشرية، ثم يضعها بين يدى القرآن ليحكم على هذه الحصيلة بما يمكن لهذا المفسر ان يفهمه، ان يستشفه و يستنطقه، ان يتبينه من خلال مجموعة آياته «۱» بين التفسيرين. على رغم تمييزه بين الاتجاهين فى التفسير، و تباين كل منهما فى النتيجة بين سلبية و ايجابية، فان الشهيد الصدر لا يقول باستقلالهما.

لا يقول باستغناء الواحد عن الآخر: الموضوعى يحتاج فى سبيل تكوين نظريته إلى تحديد مدلولات تجزيئية يتعامل معها ضمن اطار الموضوع الذى يتبناه، فى حين ان التفسير التجزيئى يقف، من دون شك، على حقائق قرآنية من حقائق الحياة.

يختلف الاتجاهان فى الملامح و الاهداف و يتكاملان فى الحصيلة الفكرية الواحدة.

المفسر فى الاتجاه التجزيئى يستمع: النص يتحدث و هو يستمع، دوره هنا سلبى «۲». القرآن هو المعطى، عطاؤه بقدر استيعاب المفسر من خلال سعة افقه و انفتاح ذهنه و صفاء فكره، و احاطته بآداب اللغة و اساليبها، اى من خلال توافر الشروط المتعارف عليها لكل مفسر.

اما المفسر فى الاتجاه الموضوعى ينطلق من واقع الحياة، يركز نظره على واحد من موضوعات الحياة فى اى ميدان يشاء: يرصد ما وصلت اليه تجارب الانسان و فكره حول ذلك الموضوع من مشاكل و ما قدمه الفكر الانسانى من

---

(۱) المدرسة القرآنية.

(۲) نفسه.

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۱۷

حلول، و ما طرحه التطبيق التاريخى من اسئلة و نقاط كل ذلك يشكل نقطة انطلاق يصل بعدها إلى الآيات القرآنية لا ليستمع، كما فى الاتجاه التجزيئى، و انما ليطرح موضوعا جاهزا مشربا بعدد كبير من الافكار و المواقف البشرية، ينظر اليها من خلال القرآن، حيث يدور حوار بين المفسر و النص القرآنى «۱».

سؤال و جواب، المفسر يسأل و القرآن يجيب فى ضوء الحصيلة التى استطاع ان يجمعها من خلال التجارب البشرية، من خلال اعمال الخطأ و الصواب التى مارسها المفكرون على الارض.

هنا يصل المفسر إلى استنباط موقف القرآن من الموضوع المطروح و ما يمكنه استلهامه فى النص من نظرية.

من خلال هذا المنهج فى التفسير نصل إلى نتائج ترتبط بتيار التجربة البشرية و يتحرك معها، يواكب صيرورتها. نتائج عبارة عن معالم و اتجاهات قرآنية تتجدد من خلالها النظرية الاسلامية بشأن مواضيع الحياة.

و اذا كانت السلبية هى خاصة التفسير التجزيئى، فان التفسير الموضوعى هنا، المستند إلى الحوار مع الآيات و استنطاقها، هو توظيف هادف للنص القرآنى فى سبيل الكشف عن واحدة من حقائق الحياة الكبرى.

المفسر فى الاتجاه التجزيئى يبدأ بالقرآن و ينتهى بالقرآن: يستمع يسجل، يخلى ذهنه من أية سوابق.

التفسير الموضوعى يتجاوز التجزيئى خطوة: فاذا كان التجزيئى يكتفى بابراز المدلولات التفصيلية للآيات القرآنية، فان الموضوعى يتطلع، اضافة إلى ذلك، إلى ما هو اوسع، فيحاول ادراك اوجه العلاقة بان المدلولات التفصيلية ليصل إلى مركب نظرى قرآنى يشتمل فى اطاره على كل واحد من المدلولات التفصيلية.

بمعنى آخر، يرمى إلى التعبير عن موقف القرآن ازاء واحد من موضوعات

---

(۱) نفسه.

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۱۸

الحياة، و هذه هى الدلالة التى يرمى إليها السيد من خلال استعمال المصطلح.

اما كلمة توحيدى فيعبر عنها الشهيد الصدر بالتوحيد بين التجربة البشرية و القرآن: لا تخضع هذه لذاك و لا العكس، وصولا إلى استخراج المفهوم القرآنى الذى يحدد موقف الاسلام تجاه هذه التجربة او المقولة الفكرية التى ادخلها فى سياق بحثه «۱».

كلمة فى تفسير الشهيد الصدر: ذاك هو تفسير السيد الصدر «موضوعى»، واقعى، حياتى، تفسير جدلى. و اذا كان التفسير التجزيئى بكل ما يندرج تحته من تفاسير، آحادى الجانب، تلبية لحاجة و سندا لنظرية، فان تفسير الباقر هو كذلك. الا ان ما يعطيه قيمة هو انه لم يلغ التفسير التجزيئى و لم يسقط اهميته، و انما اعتبر الباقر نهجه خطوة متقدمة على ذلك التفسير التجزيئى.

و ما يزيد فى قيمته التصاقه بالحياة. و من خلال مصطلحاته: تراث البشرية، التجربة الانسانية، افكار العصر، من خلال تلك المصطلحات يضع السيد الصدر النظرية القرآنية فى مكانها الطبيعى فى مجابهة التحدى الايديولوجى القائم.

عينات من تفسير الشهيد الصدر: لو اردنا الاستفاضة فى عرض عينات من تفسير السيد الصدر لاوردنا مؤلفاته بكاملها من فلسفة و اقتصاد و مجتمع و منطق و .. و .. حيث انها كلها تستند إلى تفسيره. لكن ما نورده هنا هو على سبيل المثال ليس الا.

أ- «وَ تِلْكَ الْأَيَّامُ نُداوِلُها بَيْنَ النَّاسِ»: «هذه القضية فى الحقيقة ترتبط بسنن التاريخ، المسلمون انتصروا فى بدر حينما كانت الشروط الموضوعية للنصر بحسب منطق سنن التاريخ تفرض ان ينتصروا، و خسروا المعركة فى أحد حينما كانت

---

(۱) نفسه.

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۱۹

الشروط الموضوعية فى معركة أحد تفرض عليهم ان يخسروا المعركة» (المدرسة القرآنية) ص ۴۷ و ما بعدها.

ب- «وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَ لا يَسْتَقْدِمُونَ»: «الاجل اضيف إلى الامة، إلى الوجود المجموعى للناس، لا إلى هذا الفرد بالذات او هذا الفرد بالذات، اذن هناك وراء الاجل المحدود المحتوم لكل انسان بوصفه الفردى، هناك اجل آخر و ميقات اخر للوجود الاجتماعى لهؤلاء الافراد، للامة بوصفها مجتمعا ينشئ ما بين افراده العلاقات و الصلات القائمة على اساس مجموعة من الافكار و المبادئ المستمرة بمجموعة من القوى و القابليات. هذا المجتمع الذى يعبر عنه القرآن الكريم بالامة، هذا له اجل، له موت، له حياة، له حركة، كما ان الفرد يتحرك فيكون حيا ثم يموت، كذلك الامة تكون حية ثم تموت، و كما ان موت الفرد يخضع لاجل و لقانون و لناموس كذلك الامم ايضا لها آجالها المضبوطة».

(المدرسة القرآنية)، ص ۵۰ و ما بعدها.

ج- «إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ» «هذه الآية واضحة جدا فى المفهوم الذى اعطيناه، و هو ان المحتوى الداخلى للانسان هو القاعدة و الاساس للبناء العلوى. للحركة التاريخية. لأن الآية الكريمة تتحدث عن تغييرين: احدهما تغيير القوم «إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ» يعنى تغيير اوضاع القوم، شئون القوم، الابنية العلوية للقوم، ظواهر القوم، هذه لا تتغير حتى يتغير ما بانفسهم. اذن التغيير الاساسى هو تغيير ما بنفس القوم و التغيير النابع المترتب على ذلك هو تغيير حالة القوم، النوعية، التاريخية، الاجتماعية ..».

(المدرسة القرآنية)، ص ۵۶.

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۲۱

تعريفات فى تفسير السيد الصدر

- الاتجاه التجزيئى فى التفسير: «المنهج الذى يتناول المفسر ضمن اطاره القرآن الكريم آية فآية، وفقا لتسلسل تدوين الآيات فى المصحف الشريف».

- حصيلة تفسير تجزيئى: «مجموعة مدلولات القرآن الكريم ملحوظة بنظرة تجزيئية عدد كبير من المعارف و المدلولات القرآنية و لكن فى حالة تناثر و تراكم عددى».

- الاتجاه الموضوعى فى التفسير: «يحاول القيام بالدراسة القرآنية لموضوع من موضوعات الحياة العقائدية او الاجتماعية او الكونية فيبين و يبحث و يدرس».

- هدف التفسير الموضوعى: «تحديد موقف نظرى للقرآن الكريم، و بالتالى للرسالة الاسلامية من ذلك الموضوع من موضوعات الحياة او الكون».

- الدراسة الموضوعية: «تطرح موضوعا من موضوعات الحياة العقائدية او الاجتماعية او الكونية، و تتجه إلى درسه و تقييمه من زاوية قرآنية للخروج بنظرية قرآنية بصدده».

- المركب النظرى القرآنى (النظرية): «يكون معبرا عن موقف قرآنى تجاه موضوع من موضوعات الحياة العقائدية او الاجتماعية او الكونية».

- الموضوعية: «تبدأ من الموضوع، من الواقع الخارجى، من الشيء

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۲۲

الخارجى، و تعود إلى القرآن الكريم. تختار مجموعة من الآيات تشترك فى موضوع واحد يقوم بعملية توحيد بين مدلولاتها من اجل ان نستخرج نظرية قرآنية شاملة بالنسبة إلى ذلك الموضوع».

– تفسير موضوعی: «يبدأ من الموضوع الخارجی و ينتهی إلی القرآن الكريم .. يختار مجموعة من الآيات تشترك فی موضوع واحد».
– تفسير توحيدی: «يوحد بين التجربة البشرية و بين القرآن الكريم ..
يوحد بين مدلولات الآيات ضمن مركب نظری واحد».
السنن التاريخية فی القرآن، ص: ۲۳

– ۱– التفسير القرآنی بين التجزی و التوحيد

اشارة

السنن التاريخية فی القرآن، ص: ۲۵
بسم اللّه الرحمن الرحيم و أفضل الصلوات علی سيد الخلق محمد و آله الطيبين الطاهرين.
السنن التاريخية فی القرآن، ص: ۲۷

التمهيد

ربنا فقّهنا فی كتابك، و اكشف عن قلوبنا ظلمات الذنوب لكی نتفهم آياتك، و أزح عن بصائرنا غشاوة الدنيا و بريقها الكاذب لكی نملأ نفوسنا بهداك، و اجعلنا من حملة قرآنك، و سنة نبيك، و السائرين علی طريق طاعتك.
رَبَّنا أَتْمِمْ لَنا نُورَنا وَ اغْفِرْ لَنا إِنَّكَ عَلی كُلِّ شَیْ‌ءٍ قَدِيرٌ «۱»، رَبَّنا لا تُؤاخِذْنا إِنْ نَسِينا أَوْ أَخْطَأْنا، رَبَّنا وَ لا تَحْمِلْ عَلَيْنا إِصْراً كَما حَمَلْتَهُ عَلَی الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنا، رَبَّنا وَ لا تُحَمِّلْنا ما لا طاقَةَ لَنا بِهِ وَ اعْفُ عَنَّا وَ اغْفِرْ لَنا وَ ارْحَمْنا، أَنْتَ مَوْلانا فَانْصُرْنا عَلَی الْقَوْمِ الْكافِرِينَ «۲»، رَبَّنَا اغْفِرْ لَنا وَ لِإِخْوانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونا بِالْإِيمانِ، وَ لا تَجْعَلْ فِی قُلُوبِنا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا، رَبَّنا إِنَّكَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ «۳».
لا شك فی تنوع التفسير و اختلاف مذاهبه و تعدد مدارسه، و التباين فی كثير من الاحيان بين اهتماماته و اتجاهاته: فهناك التفسير الذی يهتم بالجانب اللفظی و الادبی و البلاغی من النص القرآنی. و هناك التفسير الذی يهتم بجانب المحتوی و المعنی و المضمون. و هناك التفسير الذی يفسر النص القرآنی بالمأثور عن المعصومين عليهم السلام، أو بالمأثور عن الصحابة و التابعين. و هناك التفسير الذی يعتمد العقل ايضا كأداة للتفسير و فهم كتاب اللّه سبحانه. و هناك التفسير

---

(۱) سورة التحريم آية/ ۸.
(۲) سورة البقرة آية/ ۲۸۶.
(۳) سورة الحشر آية/ ۱۰.

السنن التاريخية فی القرآن، ص: ۲۸
المتحيز، الذی يتخذ مواقف مذهبية مسبقة، يحاول أن يطبق النص القرآنی علی أساسها. و هناك التفسير غير المتحيز، الذی يحاول أن يستنطق القرآن نفسه، و يطبق الرأی علی القرآن لا القرآن علی الرأی. إلی غير ذلك من الاتجاهات المختلفة فی التفسير الاسلامی.
الا ان الذی يهمنا بصورة خاصة و نحن علی أبواب هذه الدراسة القرآنية، أن نركز علی ابراز اتجاهين رئيسيين لحركة التفسير فی الفكر الاسلامی:
أحدهما: «الاتجاه التجزيئی فی التفسير».
الثانی: «الاتجاه التوحيدی أو الموضوعی فی التفسير».

الاتجاه التجزيئى

و نعنى بالاتجاه التجزيئى: المنهج الذى يتناول المفسر القرآن الكريم ضمن اطاره آية فآية، وفقا لتسلسل تدوين الآيات فى المصحف الشريف.

و المفسر فى إطار هذا المنهج، يسير مع المصحف و يفسر قطعاته تدريجا على ضوء ما يؤمن به من أدوات و وسائل للتفسير من الظهور، أو المأثور من الاحاديث، أو بلحاظ الآيات الاخرى التى تشترك مع تلك الآية فى مصطلح أو مفهوم، بالقدر الذى يلقى ضوءا على مدلول القطعة القرآنية التى يراد تفسيرها، مع أخذ السياق الذى وقعت تلك القطعة ضمنه بعين الاعتبار فى كل تلك الحالات.

و نحن حينما نتحدث عن التفسير التجزيئى، نقدمه فى أوسع و أكمل صوره التى انتهى إليها. حيث نجد التفسير التجزيئى تدرّج تاريخيا إلى أن وصل بهذه الطريقة التجزيئية إلى مستوى الاستيعاب الشامل للقرآن الكريم.

و كان قد بدأ فى عصر الصحابة التابعين، على مستوى شرح تجزيئى لبعض الآيات القرآنية و تفسير لمفرداتها، و كلما امتد الزمن، ازدادت الحاجة إلى

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۲۹

تفسير المزيد من الآيات، إلى أن انتهى إلى الصورة التى قدم فيها ابن ماجة و الطبرى و غيرهما، ممن كتب فى التفسير فى أواخر القرن الثالث و أوائل القرن الرابع. و كانت تمثل أوسع صورة للمنهج التجزيئى فى التفسير.

فالمنهج التجزيئى فى التفسير، حيث إنه كان يستهدف فهم مدلول «اللّه»، و حيث ان فهم مدلول «اللّه» كان فى البداية متيسرا لعدد كبير من الناس، ثم بدأ اللفظ يتعقد من حيث المعنى بمرور الزمن، و ازدياد الفاصل، و تراكم القدرات و التجارب، و تطور الاحداث و الاوضاع.

من هنا توسع التفسير التجزيئى، تبعا لما اعترض النص القرآنى من غموض و شك فى تحديد مفهوم «اللّه»، حتى تكامل فى الطريقة التى نراها فى موسوعات التفسير، حيث ان المفسر يبدأ من الآية الاولى من سورة الفاتحة إلى سورة الناس، فيفسر القرآن آية آية، لان الكثير من الآيات بمرور الزمن، أصبح معناها و مدلولها اللفظى بحاجة إلى إبراز أو تجربة أو تأكيد و نحو ذلك، هذا هو التفسير التجزيئى.

طبعا نحن لا- نعنى بالتجزيئية لمثل هذا المنهج التفسيرى، أن المفسر يقطع نظره عن سائر الآيات و لا- يستعين بها فى فهم الآية المطروحة للبحث، بل انه قد يستعين بآيات أخرى فى هذا المجال، كما يستعين بالاحاديث و الروايات، و لكن هذه الاستعانة تتم بقصد الكشف عن المدلول اللفظى الذى تحمله الآية المطروحة للبحث، فالهدف فى كل خطوة من هذا التفسير، فهم مدلول الآية التى يواجهها المفسر بكل الوسائل الممكنة، أى أن الهدف «هدف تجزيئى»، لأنه يقف دائما عند حدود فهم هذا الجزء أو ذاك من النص القرآنى، و لا يتجاوز ذلك غالبا، و حصيلة تفسير تجزيئى للقرآن الكريم كله، تساوى على أفضل تقدير، مجموعة مدلولات القرآن الكريم ملحوظة بنظر تجزيئية أيضا، أى أننا سوف نحصل على عدد كبير من المعارف و المدلولات القرآنية، و لكن فى حالة تناثر و تراكم عددى، دون أن نكتشف أوجه الارتباط، و التركيب العضوى لهذه

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۳۰

المجاميع من الافكار، و دون أن نحدد فى نهاية المطاف، نظرية قرآنية لكل مجال من مجالات الحياة، فهناك تراكم عددى للمعلومات، الا أن من الممكن على اساس مجموع ما بين هذه المعلومات من الروابط و العلاقات ان نستخلص نظرية قرآنية مستوعبة لمختلف المجالات و المواضيع، مع ان ذلك اساسا غير مستهدف بالذات فى منهج التفسير التجزيئى و إن تحقق احيانا بشكل عرضى.

و قد أدت حالة التناثر و نزعة الاتجاه التجزيئى، إلى ظهور التناقضات المذهبية العديدة فى الحياة الاسلامية، إذ كان يكفى أن يجد

هذا المفسر او ذاك، آية تبرر مذهبه لكى يعلن عنه و يجمع حوله الانصار و الاشياع، كما وقع فى كثير من المسائل الكلامية، كمسألة الجبر و التفويض مثلا.

بينما كان بالامكان تفادى كثير من هذه التناقضات، لو أن المفسر التجزيئى خطا خطوة أخرى، و لم يقتصر على هذا التجميع العددى، كما نرى ذلك فى الاتجاه الثانى.

الاتجاه التوحيدى

اشارة

الاتجاه الثانى: و هو الاتجاه التوحيدى أو الموضوعى فى التفسير.

هـذا الاتجـاه، لاـ يتناول تفسير القرآن آيـة فآيـة بالطريقـة التى يمارسـها التفسير التجزيئى، بل تقوم فيه الدراسـة القرآنيـة على أساس الموضوعات فى حقول العقيدة و الاجتماع و غيرهما.

فمثلاـ نجـد الباحث فى هـذا الإتجاه، يبحث عقيـدة التوحيـد، أو النبوة، أو المـذهب الاقتصادى، أو سـنن التاريـخ، أو عن السـماوات و الارض، كل ذلك فى القرآن الكريم، و هكذا.

و يستهدف التفسير التوحيدى الموضوعى من القيام بهذه الدراسات، تحديد موقف نظرى للقرآن الكريم، و بالتالى للرسالة الاسلامية من ذلك الموضوع من موضوعات البحث فى الحياة، أو الكون، أو الإنسان.

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۳۱

و ينبغى أن يكون واضحا، أن الفصل بين الاتجاهين المـذكورين ليس حـديا على مستوى الواقع العملى و الممارسـة التاريخية لعملية التفسير، لأن الاتجاه الموضوعى بحاجة طبعا إلى تحديد المدلولات التجزيئية فى الآيات التى يريد التعامل معها، ضمن اطار الموضوع الـذى يتبنـاه. كمـا أن البـاحث وفق الاتجـاه التجزيئى، قـد يعثر أثناء عمليـة بحثه على حقيقـة قرآنيـة من حقائق الحياة الأخرى، و لكن الاتجاهين على أى حال، يظلان على الرغم من ذلك مختلفين فى ملامحهما و أهدافهما و حصيلتهما الفكرية.

و مما ساعـد على شيوع الاتجاه التجزيئى للتفسير و سيطرته على الساحـة قرونا عديـدة، النزعـة الروائيـة و الحديثية للتفسير، حيث إن التفسير لم يكن فى البدايـة الا شعبة من الحـديث بصورة أو بأخرى، إذ كان الحـديث هو الاساس الوحيـد له تقريبا، مضافا إلى بعض المعلومات اللغوية و الادبية و التاريخية، التى اعتمد عليها التفسير طيلة فترة طويلة من الزمن.

و من هنا لم يكن بامكان تفسير يقف عند حدود المأثور من الروايات عن الرسول و الأئمة، و الصحابة و التابعين، تلك الروايات التى كانت تثيرها استفهامات عقليـة على الأغلب من قبل السائلين، ان يتقدم خطوة أخرى، و أن يحاول تركيب مدلولات القرآن و المقارنة بينها، و استخراج النظرية من وراء هذه المدلولات اللفظية.

التفسير كان بطبعه تفسيرا لفظيا للمفردات، و شرحا للمستجد من المصطلحات، و تطبيقا لبعض المفاهيم على اسباب النزول، و مثل هـذه العمليـة لم يكن بامكانها ان تقوم بـدور اجتهادى مبدع، يستكشف ما وراء المدلول اللغوى و اللفظى من الأفكار الاساسـية، التى حاول القرآن الكريم ان يعطيها من خلال المتناثر من آياته الشريفة.

و يمكننـا ان نقرب إلى اذهـانكم فكرة هـذين الاتجـاهين المختلفين فى تفسير القرآن الكريم، بمثال من تجربتكم الفقهيـة، فالفقه هو بمعنى من المعانى، تفسير

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۳۲

للأحاديث الواردة عن النبى و الأئمـة (ع)، و نحن نعرف من البحث الفقهى، ان هناك كتبا فقهيـة شـرحت الاحاديث حـديثا حـديثا، و

تكلمت عنه دلالة أو سندا أو متنا، أو دلالة و سندا و متنا، على اختلاف اتجاهات الشراح. كما نجد ذلك فى شراح الكتب الاربعة، و شراح الوسائل، غير ان القسم الأعظم من الكتب الفقهية فى هذا المجال، لم تتجه هذا الاتجاه، بل صنفت البحث إلى مسائل وفقا لوقائع الحياة، و جعلت فى اطار كل مسألة الاحاديث التى تتصل بها، و فسرتها بالقدر الذى يلقى ضوءا على تلك المسألة، و يؤدى إلى تحديد موقف الاسلام من تلك الواقعة التى تفترضها المسألة المذكورة، و هذا هو الاتجاه الموضوعى على الصعيد الفقهى، بينما ذاك هو الاتجاه التجزيئى فى تفسير الاحاديث على هذا الصعيد.

كتاب الجواهر فى الحقيقة، شرح شامل لروايات الكتب الاربعة، و لكنه ليس شرحا يبدأ بالكتب الأربعة رواية رواية، و انما يصنف روايات الكتب الأربعة وفقا لمواضيع الحياة، كتاب البيع، كتاب الجعالة، كتاب إحياء الموات، كتاب النكاح، ثم يجمع تحت كل عنوان من هذه العناوين، الروايات التى تتصل بذلك الموضوع، و يشرحها و يقارن فيما بينها ليخرج بنظرية، لانه لا يكتفى بأن يفهم معنى هذه الرواية فقط بصورة منفردة، و معنى هذه الرواية بصورة منفردة، اذ مع هذه الحالة من الفردية، لا يمكن ان يصل إلى الحكم الشرعى، و إنما يصل إلى الحكم الشرعى عن طريق دراسة مجموعة من الروايات، التى تحمل مسئولية توضيح حكم واحد، أو باب واحد من ابواب الحياة، ثم عن طريق هذه الدراسة الشاملة، يستخرج نظرية واحدة تعطى من خلال مجموعة من الروايات لا من خلال رواية رواية.

هذا هو الاتجاه الموضوعى فى شرح الاحاديث.

و من خلال المقارنة بين الدراسات القرآنية و الدراسات الفقهية، نلاحظ اختلاف مواقع الاتجاهين على الصعيدين. فبينما انتشر الاتجاه الموضوعى و ساد

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۳۳

على الصعيد الفقهى منذ خطوات نموّه الأولى، نجد أن الاتجاه التجزيئى للتفسير القرآنى قد سيطر على الساحة عبر ثلاثة عشر قرنا تقريبا، إذ كان كل مفسر يبدأ كما بدأ سلفه فيفسر القرآن آية آية.

و أما ما ظهر على الصعيد القرآنى من دراسات تسمى بالتفسير الموضوعى احيانا، من قبيل دراسات بعض المفسرين حول موضوعات معينة تتعلق بالقرآن الكريم، كأسباب النزول، أو القراءات، أو الناسخ و المنسوخ، أو مجازات القرآن، فليست من التفسير التوحيدى و الموضوعى بالمعنى الذى نريده إذ إن الدراسة الموضوعية هى تلك التى تطرح موضوعا من الموضوعات فى أى حقل من حقول الانسان و الكون و الحياة، و تتجه إلى درسه و تقييمه من زاوية قرآنية، بهدف الخروج من خلاله بنظرية قرآنية محددة أزاءه فى حين ان هذه الدراسات، ليست فى الحقيقة الا تجميعا عدديا لقضايا من التفسير التجزيئى، لوحظ فيما بينها شيء من التشابه ليس إلا.

و اكثر ظنى ان الاتجاه التوحيدى الموضوعى فى الفقه بامتداده و انتشاره، ساعد بدرجة كبيرة، على تطوير الفكر الفقهى و إثراء الدراسات العلمية فى هذا المجال، بقدر ما ساعد انتشار الاتجاه التجزيئى فى التفسير على اعاقة الفكر الاسلامى القرآنى عن النمو المكتمل، و ساعد على اكتسابه حالة تشبه الحالات التكرارية الجامدة خلال قرون متطاولة، كما كان الحال فى الفترة ما بعد تفاسير امثال الطبرى و الرازى و الشيخ الطوسى، على الرغم من ألوان التغير التى حفلت بها الحياة فى مختلف الميادين، و سوف يتضح إن شاء اللّه تعالى من خلال المقارنة بين الاتجاهين: الاتجاه التجزيئى و الإتجاه التوحيدى، السبب و السر الذى يكمن وراء هذه الظاهرة.

تساؤل و جواب

لما ذا كانت الطريقة التجزيئية عائقا عن النمو؟ و لما ذا تكون الطريقة الموضوعية و الاتجاه التوحيدى عاملا فى النمو و الابداع و توسيع نطاق حركة

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۳۴

الاجتهاد؟ لکی نعرف لما ذا کان هذا و ذاک؟ یجب أن نکوّن انطباعات أوضح و أکثر تحدیدا عن هذین الاتجاهین: الإتجاه التجزیئی، و الاتجاه التوحیدی الموضوعی، و إنما یتضح ذلک بعد أن نشرح بعض أوجه الاختلاف بین الاتجاهین. و یمکن توضیح بعض أوجه الاختلاف بین هذین الاتّجاهین التفسیریین فیما یلی:

أوجه تباین و افتراق

أولا: إن المفسر التجزیئی، دوره فی التفسیر علی الأغلب سلبی، فهو یبدأ أولا بتناول النص القرآنی المحدد، آیهٔ مثلا، أو مقطعا قرآنیا، دون أی افتراضات أو طروحات مسبقهٔ، و یحاول أن یحدد المدلول القرآنی، علی ضوء ما یسعفه به اللفظ، مع ما یتاح له من القرائن المتصلهٔ و المنفصلهٔ، و دور النص القرآنی فی مثل عملیهٔ التفسیر هذه، دور المتحدث، و دور المفسر هو الاصغاء و التفهم، و هذا ما نسمیه بالدور السلبی، حیث یجلس المفسّر بین یدی النص القرآنی لیستمع فقط بینما یکون القرآن ذا دور ایجابی حینئذ، بذهن مضیء، بفکر صاف، بروح محیطهٔ بآداب اللغهٔ و أسالیبها، و بقدر ما یفهم هذا المفسر من مدلول اللفظ یسجل فی تفسیره.
و خلافا لذلک المفسر التوحیدی و الموضوعی، فانه لا ـ یبدأ عمله من النص بل من واقع الحیاهٔ، یرکز نظره علی موضوع من موضوعات الحیاهٔ العقائدیهٔ، أو الاجتماعیهٔ، أو الکونیهٔ، و یستوعب ما اثارته تجارب الفکر الانسانی حول ذلک الموضوع من مشاکل، و ما قدمه الفکر الانسانی من حلول، و ما طرحه التطبیق التاریخی من اسئلهٔ و من نقاط فراغ، ثم یأخذ النص القرآنی، لا لیتخذ من نفسه بالنسبهٔ إلی النص دور المستمع و المسجل فحسب، بل لیطرح بین یدی النص موضوعا جاهزا مشربا بعدد کبیر من الافکار و المواقف البشریهٔ، و یبدأ مع النص القرآنی حوارا علی شکل سؤال و جواب، المفسر علی ضوء الحصیلهٔ التی جمعها من خلال التجارب البشریهٔ المعرضهٔ للصواب و الخطأ یسأل و القرآن یجیب، یجلس سائلا و مستفهما و متدبرا، فیبدأ مع النص القرآنی حوارا حول هذا
السنن التاریخیهٔ فی القرآن، ص: ۳۵
الموضوع، و هو یستهدف من ذلک ان یکتشف موقف القرآن الکریم من الموضوع المطروح، و النظریهٔ التی بامکانه أن یستلهمها من النص، من خلال مقارنهٔ هذا النص بما استوعبه الباحث عن الموضوع من أفکار و اتجاهات.
و من هنا کانت نتائج التفسیر الموضوعی نتائج مرتبطهٔ دائما بتیار التجربهٔ البشریهٔ، لانها تمثل المعالم و الاتجاهات القرآنیهٔ لتحدید النظریهٔ الاسلامیهٔ بشأن موضوع من مواضیع الحیاهٔ.
و من هنا ایضا، کانت عملیهٔ التفسیر الموضوعی، عملیهٔ حوار مع القرآن الکریم و استنطاق له، و لیست مجرد استجابهٔ سلبیهٔ، بل استجابهٔ فعالهٔ و توظیفا هادفا للنص القرآنی فی سبیل الکشف عن حقیقهٔ من حقائق الحیاهٔ الکبری.
قال أمیر المؤمنین (ع) و هو یتحدث عن القرآن الکریم: «ذلک القرآن فاستنطقوه، و لن ینطق، و لکن أخبرکم عنه، ألا ان فیه علم ما یأتی، و الحدیث عن الماضی، و دواء دائکم، و نظم ما بینکم» «۱». التعبیر بالاستنطاق الذی جاء فی کلام ابن القرآن (ع)، أروع تعبیر عن عملیهٔ التفسیر الموضوعی بوصفها حوارا مع القرآن الکریم و طرحا للمشاکل الموضوعیهٔ علیه، بقصد الحصول علی الاجابهٔ القرآنیهٔ. و لیس مجرد حدیث للقرآن من طرف واحد، یقابله مجرد تسجیل لوقائعه من قبل المفسّر وفق الاتجاه التجزیئی.
إذن فی التفسیر الموضوعی، یلتحم القرآن مع الواقع و الحیاهٔ لأن التفسیر یبدأ من الواقع و ینتهی إلی القرآن بوصفه القیم و الشاهد الذی تحدد علی ضوء مفاهیمه و نظراته الربانیهٔ أطر ما ینبغی ان تکون علیه اتجاهات الواقع الانسانی.
و حیث ان القرآن هو المنبع، فهو إذن العطاء الثر و الدائم و المتجدد، و المفجر للطاقات، لأنه کلمات اللّه، و کلماته لا تنفد، بینما اللغهٔ التی یقوم علی اساس کلماتها التفسیر اللغوی محدودهٔ فی الزمان و المکان، محدودهٔ فی مدلولات الفاظها

(۱) نهج البلاغة خطبة/ ۱۵۸.

المحصورة ضمن عدد معين من الحروف الجامدة، و هذا ما يجعل من التفسير الموضوعى التوحيدى عملية انطلاقة كبرى فى تحليل الواقع الإنسانى و الكونى لا- يحدها زمان و لا- مكان و لا- إطار، لأنها تستوحى من كلمات رب الانسان و الكون و خالق الزمان و المكان و الحياة، و عملية تطورية مستمرة لأنها تتجه دائما نحو المطلق، الذى هو اللّه، مع ما توفره التجربة البشرية للباحث وفق هذا المنحى من التفسير، من غناء و ثراء. لا انه يبدأ من القرآن و ينتهى بالقرآن، فتكون عملية منعزلة عن الواقع منفصلة عن تراث التجربة البشرية. و من ضم تلك التجربة البشرية إلى التأمل القرآنى فيها، يولد فهم إسلامى قرآنى صحيح، و تصاغ المفاهيم الربّانية السليمة لهذا المجتمع البشرى، كى تكون معالم فى الطريق نحو قيام المجتمع العابد فى الأرض.

ثانيا: ان التفسير الموضوعى يتجاوز التفسير التجزيئى خطوة، لأن التفسير التجزيئى، يكتفى بإبراز المدلولات التفصيلية للآيات القرآنية الكريمة، بينما التفسير الموضوعى يتطلع إلى ما هو اوسع من ذلك، حيث نجده يحاول ان يصل إلى مركّب نظرى قرآنى، يحتل فى اطاره كل واحد من تلك المدلولات التفصيلية، موقعه المناسب، و هذا ما نسميه بلغة اليوم بالنظرية، يصل إلى نظرية قرآنية عن النبوة، و نظرية قرآنية عن المذهب الاقتصادى، و نظرية قرآنية عن سنن التاريخ و هكذا. و بذلك يكون التفسير الموضوعى متقدما خطوة على التفسير التجزيئى.

هذان فارقان رئيسيان بين الاتجاه الموضوعى فى التفسير القرآنى، و الاتجاه التجزيئى فيه. و قد ذكرنا آنفا، بأن البحث الفقهى اتجه اتجاها موضوعيا، بينما كان الاتجاه فى التفسير تجزيئيا على الأكثر.

و لا بد ان يكون قد اتضح على ضوء الفارق الأول بين الاتجاهين الرئيسيين فى التفسير، كل من اصطلاحى الموضوعى و التوحيدى، فاصطلاح الموضوعى هنا على ضوء الأمر الأول، بمعنى انه يبدأ من الموضوع و الواقع

الخارجى، و يعود إلى القرآن الكريم. و التوحيدى، باعتبار انه يوحد بين التجربة البشرية و بين القرآن الكريم، لا بمعنى انه يخضع القرآن للتجربة البشرية، بل بمعنى انه يوحد بينهما فى سياق بحث واحد، لكى يستخرج نتيجة هذا السياق الموحد من البحث، المفهوم القرآنى الذى يمكن ان يحدد موقف الاسلام تجاه هذه التجربة أو المقولة الفكرية التى ادخلها فى سياق بحثه.

اذن التفسير موضوعى و توحيدى على اساس الأمر الأول، على اساس الأمر الثانى ايضا كون التفسير موضوعيا، باعتبار انه يختار مجموعة من الآيات تشترك فى موضوع واحد. و هو توحيدى باعتبار انه يوحد بين مدلولات هذه الآيات ضمن مركب نظرى واحد، ليخلص بالتالى الى تحديد إطار نظرية واضحة، ترسمها تلك المجموعة القرآنية ككل، بالنسبة إلى ذلك الموضوع.

و لا- نقصد بالموضوعية هنا الموضوعية فى مقابل التّحيّز، ليست الموضوعية بذلك المعنى من مزايا التفسير الموضوعى فى مقابل التفسير التجزيئى، الموضوعية بذلك المعنى عبارة عن الأمانة و النزاهة فى البحث، و هى بهذا المعنى مطلوبة فى كلا- الاتجاهين التفسيريين ... و كما قلنا، فإن الأبحاث الفقهية سارت فى الاتجاه الموضوعى، بينما الأبحاث التفسيرية سارت فى الاتجاه التجزيئى، و ليس معنى ذلك بالضرورة، أن البحث الفقهى استنفذ طاقة الاتجاه الموضوعى، البحث الفقهى سار فى الاتجاه الموضوعى، و لكنه لم يستنفد أيضا طاقة هذا الاتجاه بشكل مستوعب. و لذا فهو اليوم مدعو إلى أن يستنفد طاقة هذا الاتجاه أفقيا و عموديا. أما أفقيا: فباعتبار أن الاتجاه الموضوعى كما قلنا، عبارة عن أن يبدأ الانسان من الواقع و ينتهى إلى الشريعة.

و هذا كان ديدن الفقهاء حيث نجد أن وقائع الحياة تكاد تنعكس عليهم فى واقع حياتهم المعاش، فصوّروه من خلال ما طرحوه من قضايا بأشكال متعددة، عملوا على استنباط احكامها و حلولها من مصادرها الأصلية فى الشريعة المقدسة. و هذا يبرز بوضوح، الاتجاه الموضوعى لدى هؤلاء الفقهاء، على

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۳۸

شكل جعالة، مضاربة، مزارعة، مساقات، نكاح، لأنه يبدأ بالواقع القائم و ينتهى إلى الشريعة فى مقام التعرف على حكم هذا الواقع.

و لكن من الواضح ان وقائع الحياة تتجدد و تتكاثر باستمرار و تتولد ميادين جديدة، و لذا كان لا بد لهذه العملية من النمو باستمرار و تحول كل ما يستجد من وقائع الحياة إلى علماء الشريعة ليضعوا على ضوء نصوصها ما قد يجدونه لها فيها من حلول.

فمثلا ذلك الواقع الساكن المحدود الذى كان يعيشه الشيخ الطوسى، أو الذى كان يعيشه المحقق الحلى، كان يفى بحاجات عصر الشيخ الطوسى، و بحاجات عصر المحقق الحلى. لكن كم من باب و باب من أبواب الحياة فتحت بالتدريج بعد عصرى هذين العظيمين، مما لم يكن معروفا فى شتى الحقول، و من هنا، و لكى يتمدد البحث الفقهى افقيا، كان لا بد من عرض تلك الأبواب الجديدة فى حقولها المتنوعة على الشريعة لاستنباط احكامها من نصوصها فى هذا العصر و ما يليه كما فعل العلماء الماضون فى عصورهم الماضية.

من الناحية العمودية ايضا: لا بد من ان يتوغل هذا الاتجاه الموضوعى فى الفقه، ليصل إلى النظريات الاساسية، لا أن يكتفى بالبناءات العلوية و التشريعات التفصيلية، بل ينفذ من خلال هذه البناءات العلوية إلى النظريات الأساسية و التطورات الرئيسية، التى تمثل وجهة نظر الاسلام، لأننا نعلم ان كل مجموعة من التشريعات فى كل باب من أبواب الحياة ترتبط بمثل تلك النظريات و التطورات. ففى مجال الحياة الاقتصادية، ترتبط تلك الأحكام بنظرية الإسلام بالمذهب الاقتصادى الإسلامى، و فى مجال النكاح و الطلاق، و علاقات المرأة مع الرجل، ترتبط بنظرياته الاساسية عن المرأة و الرجل و دور كل منهما. هذه النظريات الأساسية تشكّل القواعد النظرية لهذه الأبنية العلوية، لا بد من التوغل عموديا أيضا اليها، و محاولة اكتشافها بقدر الإمكان.

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۳۹

و على ضوء ما قدمنا من اوجه الاختلاف بين التفسير الموضوعى و التفسير التجزيئى، تبينت عدة جوانب تدعو إلى تفضيل المنهج الموضوعى على المنهج التجزيئى فى التفسير، فان المنهج الموضوعى فى التفسير على ضوء ما ذكرناه، اوسع أفقا و اكثر عطاء باعتبار انه يتقدم خطوة على التفسير التجزيئى، كما انه قادر على التجدد و الابداع باستمرار، باعتبار ان التجربة البشرية تغنى هذا التفسير بما تقدمه من مواد تطرح بين يدى القرآن الكريم، لكى يستطيع هذا المفسر أن يستنطق أجوبته عليها. و هذا هو الطريق الوحيد للحصول على النظريات الأساسية للإسلام و للقرآن تجاه موضوعات الحياة المختلفة.

و قد يقال: ما الضرورة إلى البحث لتحصيل هذه النظريات الاساسية و استخلاصها فى النبوة مثلا، أو فى سنن التاريخ و فى التغير الاجتماعى، أو فى الاقتصاد الاسلامى و غيرها، فى حين أننا نجد بأن النبى (ص) لم يعط هذه القضايا على شكل نظريات محدودة و بصيغ عامة، و انما اقتصر على إعطاء القرآن بهذا الترتيب للمسلمين و بهذا الشكل المتراكم؟

و الجواب: أن هناك اليوم ضرورة اساسية لاستخلاص و تحديد هذه النظريات، و لا يمكن ان يفترض الاستغناء عن ذلك. إذ إن النبى (ص) كان يعطى هذه النظريات و لكن من خلال التطبيق و من خلال المناخ القرآنى العام الذى كان يبينه فى الحياة الاسلامية، و كان كل فرد مسلم فى اطار هذا المناخ، يفهم هذه النظرية و لو فهما اجماليا ارتكازيا، لان المناخ و الاطار الروحى و الاجتماعى و الفكرى و التربوى الذى رسمه النبى (ص)، كان قادرا على أن يعطى النظرة السليمة، و القدرة السليمة على تقييم المواقع و المواقف و الاحداث. و اذا اردنا ان نقرب هذه الفكرة نقول:

هنالك حالتان: حالة انسان يعيش داخل عرف لغة من اللغات، و انسان يعيش خارجه و يريد ان يفهم بأن ابناء هذه اللغة، كيف تنتقل اذهانهم إلى المعانى المحددة من ألفاظ لغتهم.

و هنا اسلوبان: احدهما: ان نأتى بهذا الانسان و نجعله يعيش فى اعماق

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۴۰

هـذا العرف و هـذه اللغة، فترة طويلة من الزمن. و عندئذ سوف يتكون لديه الاطار اللغوى، و الاطار العرفى الذى يسـتطيع من خلاله ان يتحرك ذهنه وفقا لما يريده العرف و اللغة منه، لأن مدلولات اللغة و قواعدها تكون موجودة وجودا إجماليا ارتكازيا فى ذهنه، اللفظة السليمة، و التقييم السليم للكلمة الصحيحة، و تمييزها عن الكلمة غير الصحيحة، بينما اذا كان الانسان خارج مناخ تلك اللغة، و أردت أن تنشـئ فى ذهنه القـدرة على التمييز اللغوى الصـحيح، فلن يتم ذلـك إلا عن طريق الرجوع إلى قواعـد تلك اللغـة، حينئـذ لا بـد ان ترجع إلى ذلـك العرف الـذى تربى فيه ذلـك الانسـان، لكى تسـتنتج منه القواعـد و النظريات العامـة، عينا كما وقع بالنسـبة إلى علوم العربيـة، كيف أن ابن اللغـة العربيـة لم يكن بحاجـة فى بدايـة أمره إلى أن يتعلم علوم العرب؟ لأنه كان يعيش فى أعماق عرف اللغـة، لكن بعـد أن ابتعـد عن تلك الأعماق و اختلفت الأجواء ضـعفت اللغـة نتيجـة تراكم لغات أخرى انـدست إلى داخل حياة العرب، بدأ هؤلاء يحتاجون إلى علم اللغة و قواعدها، لأن الواقع الجديد لا يسعفهم بنظرة سليمة لكى يفكروا و يناقشوا و يتصرفوا لغويا وفقا لتلك القواعد.

هذا المثال مثال تقريبى لاجل توضيح الفكرة. اذن، الصحابة الذين عاشوا فى كنف الرسول الأعظم (ص)، اذا كانوا لم يتلقوا النظريات بصـيغ عامـة، فقـد تلقوهـا تلقيـا اجماليـا ارتكازيـا، انتقشت فى اذهـانهم و سـرت فى افكارهم، كان المناخ العام و الاطار الاجتماعى و الروحى و الفكرى الذى يعيشونه، مساعدا على تفهم هذه النظريات و لو تفهما اجماليا، و على توليد المقياس الصحيح فى مقام التقييم. اما حيث لا يوجد ذلك المناخ، و ذلك الاطار، تكون الحاجة إلى دراسة نظريات القرآن و الاسـلام، حاجة حقيقية ملحة، خصوصا مع بروز النظريـات الحديثـة، من خلال التفاعـل بين انسـان العالم الإسـلامى و انسان العالم الغربى بكل ما يملك من رصـيد كبير و ثقافة متنوعة فى مختلف مجالات المعرفة البشرية، حيث وجد الانسان المسلم نفسه امام نظريات كثيرة فى مختلف محالات

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۴۱

الحياة، فكان لا بـدّ لكى يحدد موقف الاسـلام من هذه النظريات، و ان يسـتنطق نصوص الاسـلام، و يتوغل فى أعماق هذه النصوص، لكى يصل إلى مواقف الاسـلام الحقيقيـة سـلبا و إيجابا، لكى يكتشف نظريات الاسـلام التى تعالج نفس هذه المواضيـع التى عالجتها التجارب البشرية الذكية فى مختلف مجالات الحياة.

اذن، فالتفسير الموضوعى فى المقام، هو افضل الاتجاهين فى التفسير، و ليس معنى هذه الافضلية، استبدال اتجاه باتجاه، و طرح التفسير التجزيئى رأسا، و الأخذ بالتفسير الموضوعى، و إنما إضافة اتجاه إلى اتجاه، لان التفسـير الموضوعى ليس الا خطوة إلى الامام بالنسبة إلى التفسير التجزيئى.

اذن فالمسألة هنا تعنى افتراض خطوتين، خطوة هى التفسير التجزيئى، و خطوة أخرى تنضم اليها، هى التفسير الموضوعى.

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۴۳

- ۲- شواهد و تطبيقات

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۴۵

استعرضـنا فيما سبق المبررات الموضوعية و الفكرية لايثار التفسير الموضوعى التوحيدى على التفسير التجزيئى التقليدى و أود الآن أن أذكر مبررا عمليـا لهـذا الإيثـار، هو ان شوط التفسـير التقليـدى شوط طويل جـدا، لانه يبـدأ من الفاتحـة و ينتهى بسورة الناس، و هـذا الشوط الطويل بحاجـة من أجل اكماله إلى فترة زمنيـة طويلـة أيضا. و لهـذا لم يحظ من علماء الاسـلام الاعلام الا عـدد محـدود بهذا الشـرف العظيم، شـرف مرافقة الكتاب الكريم من بدايته إلى نهايته. و نحن نشـعر بأن هذه الايام المحدودة المتبقية لا تفى بهذا الشوط الطويل، و لهذا كان من الافضل اختيار أشواط أقصر، نستطيع ان نكملها فى رحاب القرآن الكريم.

من هنا، سوف نختار موضوعات متعـددة فى القرآن المجيد، و نسـتعرض ما يتعلق بكل موضوع منها، و ما يمكن أن يلقى عليه القرآن

من أضواء.

و سوف نحاول أن يكون البحث مضغوطا بقدر الامكان. لكى نستوعب أكبر عدد من المواضيع المهمة. فنقتصر على الافكار الاساسية و المبادئ الرئيسية بالنسبة إلى كل موضوع.

و الموضوع الاول الذى سوف نختاره للبحث هو: «سنن التاريخ فى القرآن الكريم»! هل للتاريخ البشرى سنن و قوانين فى مفهوم القرآن الكريم، تتحكم فى مسيرته و فى حركته و تطوره؟ ما هى هذه السنن التى تتحكم فى التاريخ البشرى؟ كيف بدأ التاريخ البشرى؟ كيف نما؟ كيف تطور؟ ما هى

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۴۶

العوامل الاساسية فى نظرية التاريخ؟ ما هو دور الانسان فى عملية التاريخ؟ ما هو موقع السماء أو النبوة على الساحة البشرية؟ هذا كله ما سوف ندرسه تحت هذا العنوان، عنوان سنن التاريخ فى القرآن الكريم، حيث نجد أن القرآن قد بحث الجزء الاعظم من مواد هذا الجانب و مفرداته القرآنية، لكن من زوايا مختلفة، فمثلا: قصص الانبياء (ع) التى تمثل الجزء الاعظم من هذه المادة القرآنية. فحصت قصص الانبياء من زاوية تاريخية تناولها المؤرخون، و استعرضوا الحوادث و الوقائع التى تكلم عنها القرآن الكريم. و حينما لاحظوا الفراغات التى تركها هذا الكتاب العزيز، حاولوا ان يملئوها بالروايات و الاحاديث، أو بما هو المأثور عن أديان سابقة، أو بالأساطير و الخرافات، فتكونت سجلات ذات طابع تاريخى لتنظيم هذه المادة القرآنية، كذلك أيضا بحثت هذه المادة القرآنية من زاوية أخرى، من زاوية منهج القصة فى القرآن، و بيّنت مدى ما يتمتع به هذا المنهج من أصالة و قوة و إبداع، و ما تزخر به القصة القرآنية من حيوية، و حركة، و أحداث، و هكذا. و نحن نريد ان نتناول الآن هذه المادة القرآنية من زاوية أخرى، من زاوية مقدار ما تلقى من أضواء على سنن التاريخ، على تلك الضوابط و القوانين، التى تتحكم فى عملية التاريخ لنكتشف ما اذا كان يوجد فى مفهوم القرآن شيء منها. فالساحة التاريخية كأية ساحة أخرى، فلكية كانت، أو فيزيائية أو نباتية، إذ لا إشكال فى ان كلا من هذه الساحات زاخرة بمجموعة من الظواهر، و هذه الظواهر المتكثرة فى كل ساحة من الساحات تلك، تتكئ على سنن و قوانين و ضوابط، تحكمها أو تتحكم فيها.

و كما فى الساحات الأخرى، كذلك فى الساحة التاريخية، ظواهر متكثرة و متنوعة.

و هنا نتساءل: هل لهذه الظواهر على الساحة التاريخية قوانين و ضوابط تحكمها أو تتحكم فيها، كما كان الحال بالنسبة للظواهر التى تزخر بها مختلف الساحات الأخرى؟

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۴۷

و ما هو موقف القرآن منها، و ما هو عطاؤه فى تأكيد ذلك ايجابا أو سلبآ، اجمالا أو تفصيلا؟ ...

قد يتوهم البعض، أننا لا ينبغى أن نترقب من القرآن الكريم أن يتحدث عن سنن التاريخ، لان البحث فى سنن التاريخ بحث علمى، كالبحث فى سنن الطبيعة و الذرة و النبات. و القرآن الكريم لم ينزل كتاب اكتشاف بل كتاب هداية، القرآن الكريم لم يكن كتابا مدرسيا، و إنما نزل هذا الكتاب على النبى (ص) لكى يخرج الناس من الظلمات إلى النور، من ظلمات الجاهلية إلى نور الاسلام. اذن فهو كتاب هداية و تغيير، و ليس كتاب اكتشاف.

و من هنا لا نترقب من القرآن الكريم ان يكشف لنا الحقائق و المبادئ العامة للعلوم الأخرى، و لا نترقب من القرآن الكريم ان يتحدث لنا عن مبادئ الفيزياء أو الكيمياء أو النبات أو الحيوان. صحيح أن فى القرآن الكريم إشارات إلى كل ذلك، و لكنها إشارات بالحدود التى تؤكد على البعد الإلهى للقرآن، و بقدر ما يمكن أن يثبت العمق الربانى لهذا الكتاب الذى أحاط بالماضى و الحاضر و المستقبل، و الذى استطاع أن يسبق التجربة البشرية مئات السنين فى مقام الكشف عن حقائق متفرقة فى الميادين العلمية المتفرقة، لكن هذه الإشارات القرآنية، انما هى لأجل غرض علمى من هذا القبيل، لا من أجل تعليم الفيزياء و الكيمياء. القرآن لم يطرح نفسه بديلا

عن قدرة الانسان الخلّاقة، و مواهبه و قابلياته فى مقام الكدح فى كل ميادين الحياة، بما فى ذلك ميدان المعرفة و التجربة، و إنما طرح نفسه طاقة روحية موجهة للانسان، مفجرة لطاقاته، محركة له فى المسار الصحيح. و من نفس هذا المنظور، ننتظر من القرآن الكريم أن يعطينا عموميات، أن يعطينا مواقف، أن يبلور لنا مفهوما علميا فى سنن التاريخ على هذه الساحة من ساحات الكون، بينما ليس للقرآن مثل ذلك على الساحات الأخرى، و لا حرج على القرآن فى ان لا يكون له ذلك على الساحات الأخرى؟ لأن القرآن لو صار فى مقام استعراض هذه القوانين، و كشف هذه

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۴۸

الحقائق، لكان بذلك يتحول إلى كتاب آخر نوعيا، يتحول من كتاب للبشرية جمعاء، إلى كتاب للمتخصصين يدرس فى الحلقات الخاصة.

قد يتوهم البعض ذلك، فيورد علينا هذا الاعتراض، و نحن بصدد عملية اكتشاف نظرية قرآنية عامة حول السنن التاريخية فى كتاب اللّه.

الا ان هذه الملاحظة، رغم ان الروح العامة فيها صحيحة، بمعنى أن القرآن الكريم ليس كتاب اكتشاف، و لم يطرح نفسه ليجمد فى الانسان طاقات النمو و الابداع و البحث، و إنما هو كتاب هداية، و لكن مع هذا، يوجد فرق جوهرى بين الساحة التاريخية و بقية ساحات الكون، هذا الفرق الجوهرى يجعل من هذه الساحة و من سننها أمرا مرتبطا أشد الارتباط بوظيفة القرآن ككتاب هداية، خلافا لبقية الساحات الكونية الأخرى للمعرفة البشرية، و ذلك أن القرآن الكريم كتاب هداية، و لكنه عملية تغيير عبر عنها فى القرآن الكريم بأنها إخراج للناس من الظلمات إلى النور.

و عملية التغيير هذه فيها جانبان:

الجانب الأول: جانب المحتوى و المضمون، ما تدعو اليه هذه العملية التغييرية من أحكام و مناهج، و ما تتبناه من تشريعات، هذا الجانب من عملية التغيير جانب ربانى سماوى، يمثل شريعة اللّه سبحانه، التى نزلت على النبى محمد (ص) و تحدّى بنفس نزولها عليه كل سنن التاريخ المادية، لأن هذه الشريعة كانت اكبر من الجو الذى نزلت عليه، و من البيئة التى حلت فيها، و من الفرد الذى كلف بأن يقوم بأعباء تبليغها.

الجانب الثانى: لكن هناك جانب آخر لعملية التغيير التى مارسها النبى (ص) و أصحابه الاطهار، هذه العملية حينما تلحظ بوصفها عملية اجتماعية متجسدة فى جماعة من الناس و هم النبى و الصفوة من الصحابة، و بوصفها عملية قد واجهت تيارات اجتماعية مختلفة من حولها، و اشتبكت معها فى ألوان من الصراع و النزاع العقائدى و الاجتماعى و السياسى و العسكرى، حينما تؤخذ

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۴۹

هذه العملية التغييرية بوصفها تجسيدا بشريا واقعا على الساحة التاريخية، مترابطا مع الجماعات و التيارات الاخرى التى تكتنف هذا التجسيد، و التى تؤيد أو تقاوم هذا التجسيد، من هذه الزاوية تكون عملية بشرية، يكون هؤلاء اناسا كسائر الناس، تتحكم فيهم إلى درجة كبيرة سنن التاريخ التى تتحكم فى بقية الجماعات و فى بقية الفئات على مر الزمن.

اذن، عملية التغيير التى مارسها القرآن و مارسها النبى (ص) لها جانبان، من حيث صلتها بالشريعة و بالوحى، هى ربانية، هى فوق التاريخ، و لكن من حيث كونها عملا قائما على الساحة التاريخية، من حيث كونها جهدا بشريا يقاوم جهودا بشرية اخرى، تعتبر عملا تاريخيا تحكمه سنن التاريخ، و تتحكم فيه الضوابط التى وضعها اللّه سبحانه لتنظيم ظواهر الكون فى هذه الساحة المسماة بالساحة التاريخية، و لهذا نرى ان القرآن الكريم حينما يتحدث عن الزاوية الثانية، عن الجانب الثانى من عملية التغيير يتحدث عن أناس، بوصفهم بشرا من البشر، تتحكم فيهم القوانين التى تتحكم فى الآخرين، حينما أراد ان يتحدث عن انكسار المسلمين فى غزوة أحد بعد أن احرزوا ذلك الانتصار الحاسم فى غزوة بدر، تحدث القرآن الكريم عن هذه الخسارة، ما ذا قال؟ هل قال بأن رسالة السماء

خسرت المعركة بعد أن كانت ربحت المعركة فى بدر؟ لا .. لأن رسالة السماء فوق مقاييس النصر و الهزيمة بالمعنى المادى، و لكن الذى يهزم هو الانسان، الانسان حتى و لو كان مجسدا لرسالة السماء، لأن هذا الانسان تتحكم فيه سنن التاريخ، ما ذا قال القرآن؟ قال: وَ تِلْكَ الْأَيَّامُ نُداوِلُها بَيْنَ النَّاسِ «۱».

هنا أخذ يتكلم عنهم بوصفهم أناسا قال بأن هذه القضية هى فى الحقيقة ترتبط بسنن التاريخ، المسلمون انتصروا فى بدر حينما كانت الشروط الموضوعية للنصر بحسب منطق سنن التاريخ تفرض أن ينتصروا، و خسروا المعركة فى أحد

---

(۱) سورة آل عمران: الآية ۱۴۰.

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۵۰

حينما كانت الشروط الموضوعية للخسارة بحسب نفس المنطق فى معركة أحد، تفرض عليهم أن يخسروا المعركة.

إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَ تِلْكَ الْأَيَّامُ نُداوِلُها بَيْنَ النَّاسِ «۱» لا تتخيلوا أن النصر حق إلهى لكم، و إنما النصر حق طبيعى لكم، بقدر ما يمكن أن توفروا الشروط الموضوعية لهذا النصر بحسب منطق سنن التاريخ التى وضعها اللّه سبحانه و تعالى كونيا لا تشريعيا، و حيث إنكم فى غزوة أحد لم تتوفر لديكم هذه الشروط، خسرتم المعركة.

فالكلام هنا كلام مع بشر، مع عملية بشرية لا مع رسالة ربانية. بل يذهب القرآن إلى اكثر من ذلك، يهدد هذه الجماعة البشرية التى كانت انظف و اطهر جماعة على مسرح التاريخ بأنها إذا لم تقم بدورها التاريخى، و إذا لم تكن على مستوى مسئولية رسالة السماء، فإن هذا لا يعنى ان تتعطل رسالة السماء، و لا يعنى أن تسكت سنن التاريخ عنهم، بل انها سوف تستبدل، سنن التاريخ سوف تعزلها و سوف تأتى بأمم أخرى قد تهيأت لها الظروف الموضوعية الأفضل لكى تلعب هذا الدور، لكى تكون شهيدة على الناس، إذا لم تتهيأ لهذه الأمة الظروف الموضوعية لهذه الشهادة:

إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذاباً أَلِيماً، وَ يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَ لا تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ «۲» يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَ يُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكافِرِينَ يُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ لا يَخافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ ... «۳»

---

(۱) سورة آل عمران: الآية/ ۱۴۰.

(۲) سورة التوبة: الآية/ ۳۹.

(۳) سورة المائدة: الآية/ ۵۴.

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۵۱

إذن، فالقرآن الكريم إنما يتحدث من خلال الجانب الثانى فى عملية التغيير، مع البشر فى ضعفه و قوته، فى استقامته و انحرافه، فى توفر الشروط الموضوعية له و عدم توفرها.

من هنا يظهر، بان البحث فى سنن التاريخ، مرتبط ارتباطا عضويا شديدا بكتاب اللّه بوصفه كتاب هدى، بوصفه إخراجا للناس من الظلمات إلى النور، لأن الجانب العملى البشرى و التطبيقى من هذه العملية، يخضع لسنن التاريخ، فلا بد اذن ان نستلهم، و لا بد ان يكون للقرآن الكريم تصورات و عطاءات فى هذا المجال، لتكوين اطار عام للنظرة القرآنية و الاسلامية عن سنن التاريخ.

اذن، هذا لا يشبه سنن الفيزياء و الكيمياء و الفلك و الحيوان و النبات، تلك السنن ليست داخلة فى نطاق التأثير المباشر على عملية التاريخ، و لكن هذه السنن داخلة فى نطاق التأثير المباشر على عملية التغيير، باعتبار الجانب الثانى، و لذا، لا بد من شرح ذلك، و لا بد ان نترقب من القرآن اعطاء عموميات فى ذلك، نعم لا ينبغى ان نترقب من القرآن ان يتحول ايضا إلى كتاب مدرسى فى علم التاريخ

و سنن التاريخ، بحيث يستوعب كل التفاصيل و كل الجزئيات، حتى ما لا يكون له دخل فى منطق عملية التغيير التى مارسها النبى (ص)، و انما القرآن الكريم يحتفظ دائما بوصفه الأساسى و الرئيسى، يحتفظ بوصفه كتاب هداية، كتاب اخراج للناس من الظلمات إلى النور، و فى حدود هذه المهمات الكبيرة العظيمة التى مارسها فى صدور هذه المهمة، يعطى مقولاته على الساحة التاريخية، و يشرح سنن التاريخ بالقدر الذى يلقى ضوءا على عملية التغيير التى مارسها النبى (ص)، بقدر ما يكون موجها و هاديا و خالقا لرؤية موضوعية للأحداث و الظروف و الشروط.

و نحن نلاحظ فى القرآن الكريم هذه الحقيقة، حقيقة ان الساحة التاريخية عامرة بسنن كما عمرت كل الساحات الكونية الأخرى بسنن.

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۵۲

فقد بيّنت هذه الحقيقة بأشكال مختلفة و بأساليب متعددة فى عدد كثير من الآيات، بيّنت على مستوى اعطاء نفس هذا المفهوم بالنحو الكلى، و بيّنت هذه الحقيقة فى آيات اخرى على مستوى عرض هذه القوانين، و بيان مصاديق و نماذج و أمثلة لها و كيف تتحكم فى المسيرة التاريخية للانسان، و بيّنت فى سياق آخر، على نحو تمتزج فيه النظرية بتطبيقاتها امتزاج المفهوم بالمصداق، و فى آيات اخرى حصل الحث الأكيد على الاستفادة من الحوادث الماضية، و شحذ الهمم لايجاد عملية استقراء للتاريخ، و عملية الاستقراء للحوادث كما تعلمون، هى عملية علمية بطبيعتها، تريد أن تفتش عن سنّة و قانون، و إلا فلا معنى للاستقراء من دون افتراض سنة أو قانون. إذن هناك السنة متعددة درجت عليها الآيات القرآنية فى مقام توضيح هذه الحقيقة و بلورتها.

و نحن عند ما نتصفّح كتاب اللّه العظيم، نجد أن هناك عددا كثيرا من الآيات الكريمة استعرضت هذه الفكرة بشكل و آخر، و سوف نقرأ جملة من هذه الآيات الكريمة، و بعض هذه الآيات التى سوف نستعرضها واضح الدلالة على المقصود، و البعض الآخر له نحو دلالة بشكل و آخر، أو يكون معززا و مؤيدا للروح العامة لهذه الفكرة القرآنية.

فمن الآيات الكريمة التى اعطيت فيها الفكرة الكلية، فكرة ان التاريخ له سنن و ضوابط ما يلى:

لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذا جاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَ لا يَسْتَقْدِمُونَ «۱».

وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَ لا يَسْتَقْدِمُونَ «۲».

نلاحظ فى هاتى الآيتين الكريمتين، أن الأجل أضيف إلى الأمة، إلى

---

(۱) سورة يونس: الآية/ ۴۹.

(۲) سورة الأعراف: الآية ۳۴.

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۵۳

الوجود المجموعى للناس، لا- إلى هذا الفرد أو ذاك الفرد بالذات، إذن، هناك وراء الأجل المحدود المحتوم لكل إنسان بوصفه الفردى، أجل آخر و ميقات آخر للوجود الاجتماعى للأفراد، للأمة بوصفها مجتمعا ينشئ ما بين أفراده العلاقات و الصلات القائمة على أساس مجموعة من الأفكار و المبادئ المسندة بمجموعة من القوى و القابليات، هذا المجتمع الذى يعبر عنه القرآن الكريم بالأمة، له أجل، له موت، له حياة، له حركة، كما أن الفرد يتحرك فيكون حيا ثم يموت، كذلك الأمة تكون حية ثم تموت، و كما أن موت الفرد يخضع لأجل و لقانون، كذلك الأمم ايضا لها آجالها المضبوطة و قوانينها.

و هناك نواميس تحدد لكل أمة هذا الأجل.

إذن، هاتان الآيتان الكريمتان، فيهما عطاء واضح للفكرة الكلية، فكرة أن التاريخ له سنن تتحكم به وراء السنن الشخصية التى تتحكم فى الأفراد، بهوياتهم الشخصية:

وَ ما أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَ لَها كِتابٌ مَعْلُومٌ ما تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَها وَ ما يَسْتَأْخِرُونَ «۱». ما تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَها وَ ما يَسْتَأْخِرُونَ «۲». أ وَ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَ أَنْ عَسى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ «۳».

ظاهر الآية الكريمة، أن الأجل الذى يترقب هؤلاء أن يكون قريبا أو يهدّدون بأن يكون قريبا، هو الأجل الجماعى لا الأجل الفردى، لأن قوما بمجموعهم لا يموتون عادة فى وقت واحد، و إنما الجماعة بوجودها المعنوى الكلى، هو الذى يمكن ان يكون قد اقترب أجله.

فالأجل الجماعى هنا يعبر عن حالة قائمة بالجماعة، لا عن حالة قائمة بهذا

---

(۱) سورة الحجر: الآية/ ۴- ۵.

(۲) سورة المؤمنون: الآية/ ۴۳.

(۳) سورة الأعراف: الآية/ ۱۸۵.

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۵۴

الفرد أو بذاك، لأن الناس عادة تختلف آجالهم حينما ننظر إليهم بالمنظار الفردى، لكن حينما ننظر إليهم بالمنظار الاجتماعى و بوصفهم مجموعة واحدة متفاعلة فى ظلمها و عدلها، فى سرّائها و ضرائها، يكون لها أجل واحد، فهذا الأجل الجماعى المشار إليه، إنما هو أجل الأمة، و بهذا تلتقى هذه الآية الكريمة مع الآيات السابقة.

وَ رَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤاخِذُهُمْ بِما كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا وَ تِلْكَ الْقُرى أَهْلَكْناهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَ جَعَلْنا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِداً «۱».

وَ لَوْ يُؤاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِما كَسَبُوا ما تَرَكَ عَلى ظَهْرِها مِنْ دَابَّةٍ وَ لكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كانَ بِعِبادِهِ بَصِيراً «۲».

ففى هاتين الآيتين الكريمتين، تحدث القرآن الكريم، عن أنه لو كان اللّه يريد أن يؤاخذ الناس بظلمهم، و بما كسبوا، لما ترك على ساحة الناس من دابة، يعنى لأهلك الناس جميعا.

و قد وقعت مشكلة فى كيفية تصوير هذا المفهوم القرآنى، حيث إن الناس ليسوا كلهم ظالمين عادة، فيهم الأنبياء، فيهم الأئمة و فيهم الأوصياء. هل يشمل الهلاك الأنبياء، و الأئمة العدول من المؤمنين؟ حتى ان بعض الناس استغل هاتين الآيتين لانكار عصمة الأنبياء (ع).

و الحقيقة، ان هاتين الآيتين تتحدثان عن عقاب دنيوى لا عن عقاب أخروى، تتحدث عن النتيجة الطبيعية لما تكسبه امة عن طريق الظلم و الطغيان، هذه النتيجة الطبيعية لا- تختص حينئذ بخصوص الظالمين من ابناء المجتمع، بل تعم أبناء المجتمع على اختلاف هوياتهم، و على اختلاف انحاء سلوكهم.

---

(۱) سورة الكهف: الآية (۵۸- ۵۹).

(۲) سورة فاطر: الآية/ ۴۵.

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۵۵

حينما وقع التيه أربعين عاما على بنى اسرائيل نتيجة ما كسب هذا الشعب ظلمه و طغيانه و تمرده، هذا التيه لم يختص بخصوص الظالمين من بنى اسرائيل، انما شمل موسى (ع)، شمل اطهر الناس و أزكاهم و أشجعهم، فى مواجهة لظلمة و الطواغيت، شمل موسى (ع) لانه جزء من تلك الامة، و بهذا شمل لتيه موسى (ع).

حينما حل البلاء و العذاب بالمسلمين نتيجة انحرافهم، فاصبح يزيد بن معاوية خليفة عليهم، يتحكم فى دمائهم و اموالهم و اعراضهم و عقائدهم، لم يختص بالظالمين من المجتمع الاسلامى، وقتئذ شمل الحسين (ع)، أطهر الناس و أزكى الناس و اطيب الناس و أعدل الناس، شمل الامام المعصوم (ع) حيث قتل تلك القتلة الفظيعة هو و اصحابه و أهل بيته.

هذا كله هو منطق سنن التاريخ، و العذاب حينما يأتى فى الدنيا على مجتمع وفق هذه السنن، لا يختص بخصوص الظالمين من ابناء ذلك المجتمع، و لهذا قال القرآن الكريم فى آية اخرى:

وَ اتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ «۱».

بينما يقول فى موضع آخر.

وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى «۲» فالعقاب الأخروى دائما ينصب على العامل مباشرة، و أما العقاب الدنيوى فيكون أوسع من ذلك، اذن هاتان الآيتان الكريمتان تتحدثان عن سنن التاريخ و ما يمكن ان يحصل نتيجة كسب الأمة و سعيها و جهدها، لا عن العقاب بالمعنى الاخروى، و العذاب بمعنى مقاييس يوم القيامة، وَ إِنْ كادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْها وَ إِذاً لا يَلْبَثُونَ

---

(۱) سورة الأنفال: الآية/ ۲۵.

(۲) سورة فاطر: الآية/ ۱۸.

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۵۶

خِلافَكَ إِلَّا قَلِيلًا سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنا وَ لا تَجِدُ لِسُنَّتِنا تَحْوِيلًا «۱».

هذه الآية الكريمة أيضا تؤكد المفهوم العام، يقول:

وَ لا تَجِدُ لِسُنَّتِنا تَحْوِيلًا، هذه سنة سلكناها مع الأنبياء من قبلك، و سوف تستمر و لن تتغير. أهل مكة يحاولون أن يستفزوك لتخرج من مكة، لأنهم عجزوا عن امكانية القضاء عليك، و على كلمتك و دعوتك، و لهذا صار أمامهم طريق واحد، و هو اخراجك من مكة.

و هناك سنة من سنن التاريخ سوف يأتى ان شاء اللّه شرحها بعد ذلك، يشار اليها فى هذه الآية الكريمة. و هى أنه اذا وصلت عملية المعارضة إلى مستوى اخراج النبى من هذا البلد، بعد عجز هذه المعارضة عن كل الوسائل و الاساليب الاخرى، فانهم لا يلبثون الا قليلا. ليس المقصود من انهم لا يلبثون الا قليلا، أنهم سوف ينزل عليهم عذاب اللّه سبحانه من السماء، لأن أهل مكة اخرجوا النبى بعد نزول هذه السورة. استفزوه و ارعبوه، و خرج النبى (ص) من مكة إلى المدينة، اذ لم يجد له ملجأ و أمانا، و لم ينزل عذاب من السماء على أهل مكة، و انما المقصود فى أكبر الظن من هذا التعبير، أنهم لا يمكثون كجماعة صامدة معارضة، و كموقع اجتماعى، لا كأناس و كبشر، و انما سوف ينهار هذا الموقع نتيجة هذه العملية، لان هذه النبوة التى عجز هذا المجتمع عن تطويقها، سوف تستطيع بعد ذلك ان تهز هذه الجماعة كموقع للمعارضة، و هذا ما وقع فعلا. فان رسول اللّه (ص) حينما أخرج من مكة لم يمكثوا بعده الا قليلا، اذ فقدت المعارضة فى مكة موقعها، و تحولت مكة إلى جزء من دار الاسلام بعد سنين معدودة.

اذن، الآية تتحدث عن سنة من سنن التاريخ، و تؤكد و تقول وَ لا تَجِدُ لِسُنَّتِنا تَحْوِيلًا.

---

(۱) سورة الإسراء: الآية/ ۷۶- ۷۷.

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۵۷

قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُروا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ «۱».

تؤكد هذه الآية على السنن، و تؤكد على ضرورة التتبع لاحداث التاريخ من اجل استكشاف هذه السنن و من ثمّ الاعتبار بها.

وَ لَقَدْ کُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِکَ فَصَبَرُوا عَلی ما کُذِّبُوا وَ أُوذُوا حَتَّی أَتاهُمْ نَصْرُنا وَ لا مُبَدِّلَ لِکَلِماتِ اللَّهِ وَ لَقَدْ جاءَکَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِینَ ... «۲».

هـذه الآیـهٔ أیضا تثبّت قلب رسول اللّه (ص)، تحـدثه عن التجارب السابقـهٔ، و تربطه بقانونها، و توضح له ان هناک سـنهٔ تجری علیه و تجری علی الانبیاء الـذین مارسوا هذه التجربهٔ من قبله، و ان النصـر سوف یأتیه، و لکن للنصـر شـروطه الموضوعیهٔ: الصبر، و الثبات، و استکمال باقی الشروط، هذا هو طریق الحصول علی هذا النصر، و لهذا تقول الآیهٔ:

فَصَبَرُوا عَلی ما کُذِّبُوا وَ أُوذُوا حَتَّی أَتاهُمْ نَصْرُنا، وَ لا مُبَدِّلَ لِکَلِماتِ اللَّهِ اذن هناک کلمـهٔ للّه لا تتبـدل علی مر التاریـخ، هی علاقهٔ قائمهٔ بین النصـر و بین مجموعهٔ من الشـروط و القضایا و المواصفات وضحت من خلال الآیات المتفرقهٔ، و جمعت علی وجه الاجمال هنا. اذن فهناک سنهٔ للتاریخ.

فَلَمَّا جاءَهُمْ نَذِیرٌ ما زادَهُمْ إِلَّا نُفُوراً اسْتِکْباراً فِی الْأَرْضِ وَ مَکْرَ السَّیِّئِ وَ لا یَحِیقُ الْمَکْرُ السَّیِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ یَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِینَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِیلًا وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِیلًا «۳» وَ لَوْ قاتَلَکُمُ الَّذِینَ کَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبارَ ثُمَّ لا یَجِدُونَ وَلِیًّا وَ لا نَصِیراً سُنَّهَٔ اللَّهِ الَّتِی قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّهِٔ اللَّهِ تَبْدِیلًا «۴».

---

(۱) سورهٔ آل عمران: الآیهٔ/ ۱۳۷.

(۲) سورهٔ الأنعام: الآیهٔ/ ۳۴.

(۳) سورهٔ فاطر: الآیهٔ/ ۴۳.

(۴) سورهٔ الفتح: الآیهٔ/ ۲۳.

السنن التاریخیهٔ فی القرآن، ص: ۵۸

هناک آیات استعرضت نماذج من سنن التاریخ إِنَّ اللَّهَ لا یُغَیِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّی یُغَیِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ «۱».

المحتوی الـداخلی النفسـی و الروحی للانسان هو القاعـدهٔ، الوضع الاجتماعی هو البناء العلوی، لا یتغیر هـذا البناء العلوی الا وفقا لتغیّر القاعدهٔ، علی ما یأتی ان شاء اللّه شرحه بعد ذلک.

هـذه الآیـهٔ اذن، تتحـدث عن علاقـهٔ معینهٔ بین القاعدهٔ و البناء العلوی، بین الوضع النفسـی و الروحی و الفکری للانسان، و بین الوضـع الاجتمـاعی، بین داخـل الانسان و بین خارجه، فخارج الانسان، یصـنعه داخل الانسان، فاذا تغیر ما بنفس القوم تغیر ما علیه وضـعهم، و علاقاتهم، و الروابط التی تربط بعضهم ببعض.

اذن فهذه سـنهٔ من سـنن التاریخ، ربطت القاعدهٔ بالبناء العلوی ذلِکَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ یَکُ مُغَیِّراً نِعْمَهًٔ أَنْعَمَها عَلی قَوْمٍ حَتَّی یُغَیِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ «۲». أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّهَٔ وَ لَمَّا یَأْتِکُمْ مَثَلُ الَّذِینَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِکُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْساءُ وَ الضَّرَّاءُ وَ زُلْزِلُوا حَتَّی یَقُولَ الرَّسُولُ وَ الَّذِینَ آمَنُوا مَعَهُ مَتی نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِیبٌ «۳».

یستنکر علیهم ان یأملوا فی ان یکون لهم استثناء من سـنهٔ التاریـخ، هل تطمعون ان یکون لکم اسـتثناء من سـنهٔ التاریـخ! و ان تدخلوا الجنهٔ و ان تحققوا النصـر، و انتم لم تعیشوا ما عاشـته تلک الامم التی انتصـرت و دخلت الجنهٔ من ظروف البأساء و الضـراء التی تصـل إلی حـد الزلزال، علی حد تعبیر القرآن الکریم؟ ان حالات البأساء و الضـراء التی تتعملق علی مسـتوی الزلزال هی فی الحقیقهٔ مدرسـهٔ للامهٔ، هی امتحان لإرادتها و صمودها و ثباتها، لکی تستطیع

---

(۱) سورهٔ الرعد: الآیهٔ/ ۱.

(۲) سورهٔ الأنفال: الآیهٔ/ ۵۳.

(۳) سورة البقرة: الآية/ ۲۱۴.

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۵۹

بالتدريج، ان تكتسب القدرة على ان تكون امة وسطا بين الناس.

و عليه، فنصر اللّه قريب لكنه ليس أمرا عفويا، ليس أمرا على سبيل الصدفة، نصر اللّه قريب و لكن اهتد إلى طريقه. و من أجل تحصيل ذلك الاهتداء، لا بد و ان تعرف منطق التاريخ، قد يكون الدواء قريبا من المريض، لكن اذا كان هذا المريض لا يعرف تلك المعادلة العلمية التى تؤدى إلى اثبات ان هذا الدواء يقضى على جرثومة هذا الداء، لا يستطيع ان يستعمل هذا الدواء حتى و لو كان قريبا منه.

فالاطلاع على سنن التاريخ، هو الذى يمكّن الانسان من التوصل إلى النصر. فهذه الآية تستنكر على المخاطبين بها ان يكونوا طامعين فى الاستثناء من سنن التاريخ:

وَ ما أَرْسَلْنا فِی قَرْیَةٍ مِنْ نَذِیرٍ إِلَّا قالَ مُتْرَفُوها إِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ کافِرُونَ وَ قالُوا نَحْنُ أَکْثَرُ أَمْوالًا وَ أَوْلاداً وَ ما نَحْنُ بِمُعَذَّبِینَ .. «۱».

هذه علاقة قائمة بين النبوة على مر التاريخ، و بين موقع المترفين و المسرفين فى الامم و المجتمعات. هذه العلاقة تمثل سنة من سنن التاريخ، و ليست ظاهرة وقعت فى التاريخ صدفة، و الا لما تكررت بهذا الشكل المطرد، و لما قال: وَ ما أَرْسَلْنا فِی قَرْیَةٍ مِنْ نَذِیرٍ إِلَّا قالَ مُتْرَفُوها. اذن هناك علاقة سلبية، هناك علاقة تطارد و تناقض، بين موقع النبوة الاجتماعى فى حياة الناس على الساحة التاريخية، و الموقع الاجتماعى للمترفين و المسرفين، هذه العلاقة ترتبط فى الحقيقة بدور النبوة فى المجتمع، و دور المترفين و المسرفين فى المجتمع. هذه العلاقة جزء من رؤية موضوعية عامة للمجتمع، كما سوف يتضح ان شاء اللّه عند ما نبحث عن دور النبوة فى المجتمع، و الموقع الاجتماعى للنبوة، سوف يتضح حينئذ ان النقيض الطبيعى للنبوة هو موقع المترفين و المسرفين.

---

(۱) سورة سبأ:/ ۳۴- ۳۵.

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۶۰

اذن هذه سنة من سنن التاريخ: .. وَ إِذا أَرَدْنا أَنْ نُهْلِکَ قَرْیَةً أَمَرْنا مُتْرَفِیها فَفَسَقُوا فِیها فَحَقَّ عَلَیْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْناها تَدْمِیراً وَ کَمْ أَهْلَکْنا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَ کَفی بِرَبِّکَ بِذُنُوبِ عِبادِهِ خَبِیراً بَصِیراً «۱».

هذه الآية أيضا، تتحدث عن علاقة معيّنة و مطّردة بين ظلم يسود و يسيطر، و بين هلاك تجر اليه الامة جرا. و هى سنة من سنن التاريخ.

وَ لَوْ أَنَّهُمْ أَقامُوا التَّوْراةَ وَ الْإِنْجِیلَ وَ ما أُنْزِلَ إِلَیْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَکَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ .. «۲».

وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُری آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَیْهِمْ بَرَکاتٍ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ وَ لکِنْ کَذَّبُوا فَأَخَذْناهُمْ بِما کانُوا یَکْسِبُونَ «۳».

وَ أَنْ لَوِ اسْتَقامُوا عَلَی الطَّرِیقَةِ لَأَسْقَیْناهُمْ ماءً غَدَقاً بَلْ قالُوا إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلی أُمَّةٍ وَ إِنَّا عَلی آثارِهِمْ مُهْتَدُونَ «۴» وَ کَذلِکَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِکَ فِی قَرْیَةٍ مِنْ نَذِیرٍ إِلَّا قالَ مُتْرَفُوها إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلی أُمَّةٍ وَ إِنَّا عَلی آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ «۵».

هذه الآيات ايضا، تتحدث عن علاقة معينة بين الاستقامة و تطبيق احكام اللّه سبحانه، و بين وفرة الخيرات و وفرة الانتاج، و بلغة اليوم: بين عدالة التوزيع و بين وفرة الانتاج، القرآن يؤكد ان المجتمع الذى تسوده العدالة فى التوزيع، التى عبر عنها القرآن تارة ب: لَوِ اسْتَقامُوا عَلَی الطَّرِیقَةِ و اخرى ب: لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُری آمَنُوا وَ اتَّقَوْا و اخرى ب: لَوْ أَنَّهُمْ أَقامُوا التَّوْراةَ وَ الْإِنْجِیلَ، لأن شريعة السماء نزلت من أجل تقرير عدالة التوزيع، و إقامتها على أسس

---

(۱) سورة الإسراء: الآية/ ۱۶- ۱۷.

(۲) سورة المائدة: الآية/ ۶۶.

(۳) سورة الأعراف: الآية/ ۹۶.

(۴) سورة الجن: الآية/ ۱۶.

(۵) سورة الزخرف: الآية/ ۲۲.

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۶۱

عادلة، يقول: لو أنهم طبقوا عدالة التوزيع، اذن لما وقعوا فى ضيق من ناحية لثروة المنتجة، بل لازداد الثراء و ازدادت الخيرات و البركات. لكنهم تخيلوا أن عدالة التوزيع تقتضى التقسيم، و بالتالى تقتضى فقر الناس، بينما الحقيقة أن السنة التاريخية تؤكد عكس ذلك، تؤكد بأن تطبيق شريعة السماء و تجسيد أحكامها فى علاقات التوزيع، تؤدى دائما و باستمرار، إلى وفرة الانتاج و إلى زيادة الثروة، إلى أن يفتح على الناس بركات السماء و الأرض.

اذن هذه ايضا سنّة من سنن التاريخ.

و هناك آيات اخرى حث على الاستقراء و النظر و التدبر فى الحوادث التاريخية، من اجل تكوين نظرة استقرائية، من اجل الخروج بنواميس و سنن كونية للساحة التاريخية.

أ فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ لِلْكافِرِينَ أَمْثالُها «۱».

أ فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ «۲».

فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها وَ هِيَ ظالِمَةٌ فَهِيَ خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها وَ بِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَ قَصْرٍ مَشِيدٍ، أ فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِها أَوْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها فَإِنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصارُ وَ لكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ «۳».

وَ كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشاً فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ هَلْ

---

(۱) سورة محمد: الآية/ ۱۰.

(۲) سورة يوسف: الآية/ ۱۰۹.

(۳) سورة الحج: الآية/ ۴۶.

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۶۲

مِنْ مَحِيصٍ، إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرى لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَ هُوَ شَهِيدٌ ... «۱».

من مجموع هذه الآيات الكريمة، يتبلور المفهوم القرآنى الذى اوضحناه، و هو تأكيد القرآن على ان الساحة التاريخية لها سنن و لها ضوابط، كما يكون هناك سنن و ضوابط لكل الساحات الكونية الاخرى. و هذا المفهوم القرآنى، يعتبر فتحا عظيما للقرآن الكريم .. لاننا فى حدود ما نعلم، أن القرآن اول كتاب عرفه الانسان، اكد على هذا المفهوم، و كشف عنه و أصر عليه، و قاوم بكل ما لديه من وسائل الاقناع و التفهيم، النظرة العفوية أو النظرة الغيبية الاستسلامية فى تفسير الاحداث، الانسان الاعتيادى كان يفسر التاريخ بوصفه كومة متراكمة من الاحداث، يفسره على اساس الصدفة تارة، و على اساس القضاء و القدر و الاستسلام لامر اللّه سبحانه و تعالى تارة أخرى، القرآن الكريم قاوم هذه النظرة العفوية الاستسلامية، و نبه العقل البشرى، إلى ان هذه الساحة لها سنن، و لها قوانين، و لكى تستطيع ان تكون انسانا فاعلا مؤثرا، لا بد لك أن تكتشف هذه السنن، و تتعرف على تلك القوانين، لكى تستطيع ان تتحكم فيها، و الا تحكمت هى فيك و انت مغمض العينين، افتح عينيك على هذه القوانين، لكى تكون انت المتحكم فيها و ليس العكس.

هذا الفتح القرآنى الجليل، هو الذى مهد إلى تنبيه الفكر البشرى بعد ذلك بقرون، إلى ان تجرى محاولات لفهم التاريخ فهما علميا، بعد نزول القرآن بثمانية قرون، بدأت هذه المحاولات على ايدى المسلمين انفسهم، فقام ابن خلدون بمحاولة لدراسة التاريخ و كشف

سننه و قوانينه، ثم بعد ذلك بأربعة قرون (على اقل تقدير)، اتجه الفكر الاوربى فى بدايات ما يسمى بعصر النهضة، نحو تجسيد هذا المفهوم الذى ضيعه المسلمون، حيث لم يتوغلوا إلى

(۱) سورة ق: الآية/ ۳۶- ۳۷.

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۶۳

اعماقه، و بدأت لدى الغربيين أبحاث متنوعة و مختلفة حول فهم التاريخ، و فهم سننه، و نشأت على هذا الاساس اتجاهات مثالية و مادية و متوسطة، و مدارس متعددة، كل واحدة منها تحاول ان تحدد هذه السنن التاريخية.

و قد تكون المادية التاريخية اشهر هذه المدارس و أوسعها تغلغلا و اكثرها تأثيرا فى التاريخ نفسه، اذن، كل هذا الجهد البشرى فى الحقيقة، هو استمرار لهذا التنبيه القرآنى، و يبقى للقرآن الكريم مجده فى انه طرح هذه الفكرة لأول مرة على ساحة المعرفة البشرية.

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۶۵

- ۳- حقائق قرآنية عن سنن التاريخ

اشارة

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۶۷

من استعراضنا السابق للنصوص القرآنية الكريمة، التى أوضحت فكرة السنن التاريخية و أكدت عليها، يمكننا أن نستخلص من خلال المقارنة بين تلك النصوص، ثلاث حقائق أكد عليها القرآن الكريم بالنسبة إلى سنن التاريخ.

الحقيقة الاولى:

هى الاطّراد، بمعنى أن السنة التاريخية مطردة، فهى ليست علاقة عشوائية قائمة على أساس الصدفة و الاتفاق، و إنما هى علاقة ذات طابع موضوعى، لا تتخلف فى الحالات الاعتيادية التى تجرى فيها الطبيعة و الكون على السنن العامة، و كان التأكيد على طابع الاطراد فى السنة، تأكيدا على الطابع العلمى للقانون التاريخى، لان اهم مميز يميز القانون العلمى عن بقية المعادلات و الفروض، هو الإطراد و التتابع و عدم التخلف.

و من هنا استهدف القرآن الكريم، من خلال التأكيد على طابع الإطراد فى السنة التاريخية، التأكيد على الطابع العلمى لهذه السنّة بغية خلق شعور واع لدى الانسان المسلم، يمكنه من تتبع أحداث التاريخ فى جريانها بصورة واعية، بعيدا عن العشوائية و السذاجة و الاستسلام.

وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا .. «۱»، وَ لا تَجِدُ لِسُنَّتِنا تَحْوِيلًا .. «۲»

(۱) سورة الأحزاب: الآية/ ۶۲.

(۲) سورة الإسراء: الآية/ ۷۷.

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۶۸

«وَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِ اللَّهِ ...» «۱»

هذه النصوص القرآنية التى تقدم استعراضها، تؤكد على طابع الاستمرارية و الاطراد أى طابع الموضوعية و العلمية للسنة التاريخية، و

تستنكر هذه النصوص الشريفة كما تقدم فى بعضها، أن يكون هناك تفكير أو طمع لدى جماعة من الجماعات، بأن تكون مستثناة من سنة التاريخ كما تقدم شرحه.

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَ لَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْساءُ وَ الضَّرَّاءُ وَ زُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ «۲» فالروح العامة للقرآن- إذن-، تؤكد على هذه الحقيقة الاولى، حقيقة الإطراد فى السنة التاريخية، الذى يعطيها الطابع العلمى من أجل تربية الانسان على ذهنية واعية علمية يتصرف فى اطارها و من خلالها مع أحداث التاريخ.

الحقيقة الثانية:

الحقيقة الثانية التى أكدت عليها النصوص القرآنية، ربانية السنة التاريخية، و ارتباطها باللّه سبحانه، بمعنى أن كل قانون من قوانين التاريخ، هو قرار ربانى، هذا التأكيد من القرآن الكريم على ربانية السنة التاريخية و على طابعها الغيبى، يستهدف ربط الانسان، حتى حينما يريد أن يستفيد من القوانين الموضوعية للكون، باللّه سبحانه، و إشعار الانسان بأن الاستعانة بالنظام الكامل لمختلف الساحات الكونية، و الاستفادة من مختلف القوانين و السنن التى تتحكم فى هذه الساحات، ليس انعزالا عن اللّه سبحانه، لأن اللّه يمارس قدرته من خلال هذه السنن، فهى إرادة اللّه، و هى ممثلة لحكمة اللّه و تدبيره فى الكون.

---

(۱) سورة الانعام: الآية/ ۳۴.

(۲) سورة البقرة: الآية/ ۲۱۴.

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۶۹

و قد يتوهم البعض أن هذا الطابع الغيبى الذى يلبسه القرآن الكريم للسنن التاريخية، يبعد القرآن عن إطار التفسير العلمى الموضوعى للتاريخ، و يجعله يتجه اتجاه التفسير الإلهى للتاريخ، الذى مثلته مدرسة من مدارس الفكر اللاهوتى على يد أغسطين و غيره من المفكرين المسيحيين اللاهوتيين.

لكن الحقيقة، أن هناك فرقا أساسيا بين الاتجاه القرآنى فى ربط سنن التاريخ بعالم الغيب، و بين ما يسمى بالتفسير الإلهى للتاريخ الذى تبناه اللاهوت. و حاصل هذا الفرق: هو أن الاتجاه اللاهوتى، للتفسير الإلهى للتاريخ، يتناول الحادثة نفسها، و يربط هذه الحادثة باللّه سبحانه قاطعا صلتها مع بقية الحوادث، فهو يطرح الصلة مع اللّه بديلا عن صلة الحادثة مع بقية الحوادث التى تزخر بها الساحة التاريخية، و التى تمثل السنن و القوانين الموضوعية لهذه الساحة، بينما القرآن الكريم، لا يسبغ الطابع الغيبى على الحادثة بالذات، لا ينتزع الحادثة التاريخية من سياقها ليربطها مباشرة بالسماء، و لا يطرح صلة الحادثة بالسماء كبديل عن أوجه الانطباق و العلاقات و الاسباب و المسببات على هذه الساحة التاريخية، بل إنه يربط السنة التاريخية باللّه، و يربط اوجه العلاقات و الارتباطات، فهو يقرر أولا: وجود روابط و علاقات بين الحوادث التاريخية، الا- أن هذه الروابط و العلاقات بين الحوادث التاريخية، هى فى الحقيقة تعبير عن حكمة اللّه سبحانه و تعالى، و حسن تقديره، و بنائه التكوينى للساحة التاريخية. اذا أردنا أن نستعين بمثال لتوضيح الفرق بين هذين الاتجاهين من الظواهر الطبيعية، نستطيع أن نستخدم هذا المثال: قد يأتى انسان فيفسر ظاهرة المطر، التى هى ظاهرة طبيعية فيقول بأن المطر نزل بارادة من اللّه سبحانه، و يجعل هذه الارادة بديلا عن الأسباب الطبيعية التى نجم عنها نزول المطر، فكأن المطر حادثة لا علاقة لها و لا نسب، و انما حادثة مفردة ترتبط مباشرة باللّه بمعزل عن تيار الحوادث، هذا النوع من الكلام يتعارض مع التفسير العلمى لظاهرة المطر، لكن اذا جاء شخص و قال بأن ظاهرة المطر لها أسبابها و علاقاتها و انها مرتبطة بالدورة الطبيعية للماء مثلا، الماء يتبخر فيتحول

إلى غاز، و الغاز يتصاعد سحابا و السحاب يتحول بالتدريج الى سائل نتيجة انخفاض الحرارة فينزل المطر، الا أن هذا التسلسل السببى المتقن، و هذه العلاقات المتشابكة بين هذه الظواهر الطبيعية، هى تعبير عن حكمة اللّه و تدبيره و حسن رعايته. فمثل هذا الكلام لا يتعارض مع الطابع العلمى و التفسير الموضوعى لظاهرة المطر، لأننا ربطنا هنا السنة باللّه سبحانه، لا الحادثة مع عزلها عن بقية الحوادث و قطع ارتباطها مع مؤثراتها و أسبابها.

اذن، القرآن الكريم حينما يسبغ الطابع الربانى على السنة التاريخية، لا يريد أن يتجه اتجاه التفسير الإلهى فى التاريخ، و لكنه يريد أن يؤكد أن هذه السنن ليست خارجة عن قدرة اللّه سبحانه، و انما هى تعبير و تجسيد و تحقيق لهذه القدرة، فهى كلماته و سننه و ارادته و حكمته فى الكون، لكى يبقى الانسان دائما مشدودا إلى اللّه، لكى تبقى الصلة الوثيقة بين العلم و الايمان، فهو فى نفس الوقت الذى ينظر فيه إلى هذه السنن نظرة علمية، ينظر أيضا اليها نظرة ايمانية.

و قد بلغ القرآن الكريم فى حرصه على تأكيد الطابع الموضوعى للسنن التاريخية، و عدم جعلها مرتبطة بالصدف، ان نفس العمليات الغيبية، أناطها فى كثير من الحالات بالسنة التاريخية نفسها أيضا، عملية الامداد الإلهى الغيبى، الذى يساهم فى كسب النصر، هذا الامداد جعله القرآن الكريم مشروطا و مرتبطا بالسنة التاريخية، و ظروفها، و هذه الروح أبعد ما تكون عن أن تكون روحا تفسر التاريخ على أساس الغيب، و انما هى روح تفسر التاريخ على أساس المنطق و العقل و العلم.

قرأنا فى ما سبق صيغة من صيغ السنن التاريخية للنص القرآنى: ... أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَ لَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْساءُ وَ الضَّرَّاءُ وَ زُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتى نَصْرُ اللَّهِ «۱»

---

(۱) سورة البقرة: الآية/ ۲۱۴.

الآن تعالوا نقرأ الآيات التى تتحدث عن الامداد لنلاحظ كيف أن هذه الآيات ربطت هذا الامداد الإلهى الغيبى بتلك السنة نفسها أيضا إذ تقول للمؤمنين.

أَ لَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاثَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُنْزَلِينَ بَلى إِنْ تَصْبِرُوا وَ تَتَّقُوا وَ يَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هذا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ وَ ما جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرى لَكُمْ وَ لِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَ مَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ «۱».

هناك إمداد إلهى غيبى و لكنه شرط بسنة التاريخ، شرط بقوله: بَلى إِنْ تَصْبِرُوا وَ تَتَّقُوا اجملت هنا شروط التاريخ التى فصلت فى الآيات الأخرى.

فمن الواضح إذن، أن الطابع الربانى الذى يسبغه القرآن الكريم، ليس بديلا عن التفسير الموضوعى، و انما هو ربط لهذا التفسير الموضوعى باللّه سبحانه، من أجل اكمال اتجاه الاسلام نحو التوحيد بين العلم و الايمان فى تربية الانسان المسلم.

الحقيقة الثالثة:

و الحقيقة الثالثة التى أكد عليها القرآن الكريم من خلال النصوص المتقدمة، هى حقيقة اختيار الانسان و ارادته. و التأكيد على هذه الحقيقة فى مجال استعراض سنن التاريخ مهم جدا، اذ سوف يأتى ان شاء اللّه تعالى، ان البحث فى سنن التاريخ خلق و هما عند كثير من المفكرين، أن هناك تعارضا و تناقضا بين حرية الانسان و اختياره و بين سنن التاريخ، فإما أن نقول بأن للتاريخ سننه و قوانينه، و بهذا نتنازل عن إرادة الانسان و اختياره و حريته، و إما أن نسلم بأن الانسان كائن حر مريد مختار، و بهذا يجب أن نلغى سنن التاريخ و قوانينه، و نقول بأن هذه الساحة التاريخية قد أعفيت من القوانين التى تحكم بقية الساحات الكونية.

(۱) سورة آل عمران الآية/ ۱۲۴– ۱۲۶.

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۷۲

هـذا الوهم، و هم التعـارض و التنـاقض بين فكرة السـنة التاريخيـة أو القـانون التـاريخى، و بين فكرة اختيـار الانسان و حريته، كان من الضرورى للقرآن الكريم أن يزيحه و هو يعالج هذه النقطة بالذات.

و من هنا أكد سبحانه و تعالى، على أن المحور فى تسلسل الأحداث و القضايا انما هو إرادة الانسان، و سوف أتناول ان شاء اللّه فيما بعد، الطريقة الفنية فى كيفية التوفيق بين سـنن التاريخ و إرادة الانسان، و كيف استطاع القرآن لكريم أن يجمع بين هذين الأمرين، من خلال فحص للصيغ التى يمكن فى اطارها صياغة السنة التاريخية، لكن يكفى الآن أن نستمع إلى قوله تعالى:

إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ «۱».

وَ أَنْ لَوِ اسْتَقامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْناهُمْ ماءً غَدَقاً «۲».

.. وَ تِلْكَ الْقُرى أَهْلَكْناهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَ جَعَلْنا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِداً «۳».

انظروا كيف أن السـنن التاريخيـة لاـ تجرى من فوق رأس الانسـان بـل تجرى من تحت يـده، فـان اللّه لاـ يغير مـا بقوم حـتى يغيروا ما بأنفسـهم، و ان لو اسـتقاموا على الطريقة لاسـقيناهم ماء غدقا، اذن، هناك مواقف ايجابية للانسان تمثل حريته و اختياره و تصـميمه، و هذه المواقف تستتبع ضمن علاقات السنن التاريخية، جزاءاتها و معلولاتها المناسبة، فاختيار الانسان إذن، له موضعه الرئيسى فى الساحة التاريخيـة، و النظريـة القرآنيـة لاـ تفصـل الانسان عن دوره الايجابى، و لا تعطل فيه ارادته و حريته و اختياره، و انما تؤكـد أكثر فأكثر مسئوليته على الساحة التاريخية.

ميدان سنن التاريخ

الآن، بعد استعراضنا الخصائص الثلاث التى تتميز بها السنن التاريخية فى

(۱) سورة الرعد: الآية/ ۱۱.

(۲) سورة الجن: الآية/ ۱۶.

(۳) سورة الكهف: الآية/ ۵۹.

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۷۳

القرآن الكريم، نواجه هذا السؤال: ما هو ميدان هذه السنن التاريخية؟

كنا حتى الآن نقول: بأن هذه السـنن تجرى على الساحة التاريخية، لكن، هل أن الساحة التاريخية بامتدادها هى ميدان للسنن التاريخية، أو أن ميـدان السـنن التاريخيـة يمثل جزأ من الساحـة التاريخية، بمعنى أن الميدان الذى يخضع للسـنن التاريخية، بوصـفها قوانين ذات طابع نوعى مختلف عن القوانين الأخرى الفيزيائيـة و الفسـلجية، و البيولوجيـة و الفلكيـة، هـذا الميـدان الذى يخضع لقوانين ذات طابع نوعى مختلف، هل تتسع له الساحة التاريخية؟ هل يستوعب كل الساحة التاريخية، أو يعبر عن جزء من الساحة التاريخية؟

لكن قبل هـذا يجب أن نعرف ما ذا نقصـد بالساحة التاريخية؟ الساحة التاريخية عبارة عن الساحة التى تحوى تلك الحوادث و القضايا التى يهتم بهـا المؤرخون، فالسؤال هنا اذن هو هكـذا، هل أن كل هـذه الحوادث و القضايا التى يربطها المؤرخون، و تـدخل فى نطاق مهمتهم التاريخيـة و التسـجيلية، محكومـة بالسـنن التاريخيـة، بسـنن التاريـخ ذات الطابع النوعى المتميز عن سـنن بقيـة حدود الكون و الطبيعة، أو أن جزءا معينا من هذه الحوادث و القضايا هو الذى تحكمه سنن التاريخ؟

الصحيح أن جزءا معينا من هذه الحوادث و القضايا هو الذى تحكمه سنن التاريخ، هناك حوادث لا تنطبق عليها سنن التاريخ، بل تنطبق عليها القوانين الفيزيائية، أو الفسلجية، أو قوانين الحياة، أو أى قوانين أخرى لمختلف الساحات الكونية الاخرى.
مثلا: موت أبى طالب، موت خديجة فى سنة معينة، حادثة تاريخية مهمة تدخل فى نطاق ضبط المؤرخين، و أكثر من هذا، هى حادثة ذات بعد فى التاريخ، ترتبت عليها آثار كثيرة، و لكنها لا يحكمها سنّة تاريخية، بل تحكمها قوانين فسلجية، فرضت أن يموت أبو طالب (رضوان اللّه عليه)، و أن تموت خديجة (ع)، فى ذلك الوقت المحدد، هذه الحادثة تدخل فى نطاق صلاحيات

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۷۴

المؤرخين، و لكن الذى يتحكم فى هذه الحادثة هى قوانين فسلجة جسم أبى طالب و جسم خديجة، قوانين الحياة التى تفرض المرض و الشيخوخة ضمن شروط معينة و ظروف معينة. حياة عثمان بن عفان، طول عمر الخليفة الثالث حيث ناهز الثمانين، طبعا هذه الحادثة كان لها أثر عظيم فى تاريخ الاسلام، لو قدر لهذا الخليفة أن يموت موتا طبيعيا وفقا لقوانينه الفسلجية قبل يوم الثورة، كان من الممكن أن يتغير كثير من معالم التاريخ، كان من المحتمل أن يأتى الإمام على إلى الخلافة بدون تناقضات و بدون ضجيج، لكن قوانين فسلجة جسم عثمان بن عفان اقتضت أن يمتد به العمر إلى أن يقتل من قبل الثائرين عليه من المسلمين، هذه حادثة تاريخية، أعنى أنها تدخل فى اهتمامات المؤرخين، و لها بعد تاريخى أيضا، لعبت دورا سلبا أو إيجابا فى تكييف الأحداث التاريخية الاخرى، و لكنها لا تتحكم فيها سنن التاريخ، ان الذى يتحكم فى ذلك قوانين بنية جسم عثمان بن عفان، قوانين الحياة، و قوانين جسم الانسان التى أعطت لعثمان بن عفان عمرا طبيعيا ناهز الثمانين. مواقف عثمان بن عفان و تصرفاته الاجتماعية تدخل فى نطاق سنن التاريخ، و لكن طول عمر عثمان بن عفان مسألة أخرى، مسألة حياتية أو مسألة فسلجية أو مسألة فيزيائية، و ليست مسألة تتحكم فيها سنن التاريخ.
اذن سنن التاريخ لا تتحكم على كل الساحة التاريخية، لا تتحكم فى كل القضايا التى يدرجها الطبرى فى تاريخه، بل تحكم ميدانا معينا من هذه الساحة، هذا الميدان يشتمل على ظواهر متميزة تميزا نوعيا عن سائر الظواهر الكونية و الطبيعية، و باعتبار هذا التميز النوعى، استحقت سننا متميزة أيضا تميزا نوعيا عن سنن بقية الساحات الكونية.
المميز العام للظواهر التى تدخل فى نطاق سنن التاريخ، هو أن هذه الظواهر تحمل علاقة جديدة لم تكن موجودة فى سائر الظواهر الأخرى الكونية و الطبيعية و البشرية. الظواهر الكونية و الطبيعية كلها تحمل علاقة بين مسبّب

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۷۵

و سبب، بين نتيجة و مقدمات، مثلا الغليان ظاهرة طبيعية مرتبطة بظروف معينة، بدرجة حرارة معينة، بدرجة معينة من قرب هذا الماء من النار، العلاقة هنا علاقة السببية، علاقة الحاضر بالماضى، بالظروف المسبقة المنجزة، لكن هناك ظواهر على الساحة التاريخية تحمل علاقة من نمط آخر و نوع جديد، و هى علاقة ظاهرة بهدف، علاقة نشاط بغاية، أو ما يسميه الفلاسفة بالعلة الغائية، تمييزا لها عن العلة الفاعلية، غليان الماء بالحرارة، يحمل علاقة مع سببه، مع ماضيه، لكن لا يحمل علاقة مع غاية و مع هدف، ما لم يتحول إلى فعل انسانى و إلى جهد بشرى، بينما العمل الانسانى الهادف يحتوى على علاقة لا فقط مع السبب، لا فقط مع الماضى، بل مع الغاية التى هى غير موجودة حين انجاز هذا العمل، و انما يترقب وجودها. أى العلاقة هنا علاقة مع المستقبل لامع الماضى، الغاية دائما تمثل المستقبل بالنسبة إلى العمل، بينما السبب يمثل الماضى بالنسبة إلى هذا العمل.
فالعلاقة التى يتميز بها العمل الذى تحكمه سنن التاريخ هو انه عمل هادف، عمل يرتبط بعلة غائية، سواءً كانت هذه الغاية صالحة أو طالحة، نظيفة أو غير نظيفة، و هذه الغايات التى يرتبط بها هذا العمل الهادف المسئول، حيث انها مستقبلية بالنسبة إلى العمل، فهى تؤثر من خلال وجودها الذهنى فى العامل لا محالة، فتمنحه بذلك من الطموح و التطلّع المستقبلى، ما يستطيع معه ان يجسّد ذاك الوجود الذهنى حقيقة خارجية.
اذن فالمستقبل أو الهدف الذى يشكل الغاية للنشاط التاريخى، يؤثر فى تحريك هذا النشاط و فى بلورته من خلال الوجود الذهنى،

أى من خلال الفكر الذى يتمثل فيه الوجود الذهنى للغاية ضمن شروط و مواصفات، حينئذ يؤثر فى ايجاد هذا النشاط.

اذن حصلنا الآن على مميز نوعى للظاهرة التاريخية، غير موجود بالنسبة إلى

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۷۶

سائر الظواهر الأخرى على ساحات الطبيعة المختلفة، و هذا المميز ظهور علاقة فعل بغاية، نشاط بهدف، بالتعبير الفلسفى، كون المستقبل محركا لهذا الفعل من خلال الوجود الذهنى أى الفكر الذى يرسم للفاعل غايته. إذن فالسنن النوعية للتاريخ، موضوعها ذلك الجزء من الساحة التاريخية الذى يمثل عملا له غاية، عملا يحمل علاقة اضافية إلى العلاقات الموجودة فى الظواهر الطبيعية، و هى العلاقة بالغاية و الهدف، بالعلة الغائية.

و لكن ليس معنى ذلك بالضرورة، إن يكون كل عمل له غاية عملا تاريخيا تجرى عليه سنن التاريخ، بل يوجد بعد ثالث لا بد أن يتوفر لهذا العمل لكى يكون عملا تحكمه سنن التاريخ.

البعد الأول: كان «السبب».

و البعد الثانى: كان الغاية «الهدف».

و أما البعد الثالث: فهو أن يكون لهذا العمل أرضية تتجاوز ذات الفرد العامل إلى المجتمع، الذى يكون هذا الفرد جزءا منه.

قد يأكل الفرد اذا جاع، قد يشرب اذا عطش، قد ينام اذا أحس بحاجته إلى النوم، لكن هذه الاعمال على الرغم من انها أعمال هادفة أيضا، تريد أن تحقق غايات، و لكنها أعمال لا يمتد موجها أكثر من العامل، خلافا لعمل يقوم به الانسان من خلال نشاط اجتماعى و علاقات متبادلة مع أفراد جماعته. التاجر حينما يعمل عملا تجاريا. القائد حينما يعمل عملا حربيا.

السياسى حينما يمارس عملا سياسيا. المفكر حينما يتبنى وجهة نظر فى الكون و الحياة. هذه الأعمال لها موج يتعدى شخص العامل، هذا الموج يتخذ من المجتمع أرضية له، و يمكننا أيضا أن نستعين بمصطلحات الفلاسفة فنقول:

المجتمع يشكل علة مادية لهذا العمل، نتذكر من مصطلحات الفلاسفة التمييز الأرسطى بين العلة الفاعلية و العلة الغائية و العلة المادية، هنا نستعين بهذه المصطلحات لتوضيح الفكرة. يعنى أن المجتمع باعتباره أرضية للعمل، يشكل

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۷۷

علة مادية له، فى حالة من هذا القبيل، يعتبر هذا العمل عملا تاريخيا، يعتبر عملا للأمة و للمجتمع و ان لم يكن المباشر فى جملة من الأحيان الا فرد واحد، او عددا من الأفراد، و لكن باعتبار الموج يعتبر عمل المجتمع، اذن العمل التاريخى الذى تحكمه سنن التاريخ، هو العمل الذى يكون حاملا لعلاقة مع هدف و غاية، و يكون فى نفس الوقت ذا أرضية أوسع من حدود الفرد، ذا موج يتخذ من المجتمع علة مادية له، و بهذا يكون عمل المجتمع.

و فى القرآن الكريم، نجد تمييزا بين عمل الفرد و عمل المجتمع، و نلاحظ فى القرآن الكريم انه من خلال استعراضه للكتب الغيبية الاحصائية، تحدث عن كتاب للفرد، و تحدث عن كتاب للأمة، عن كتاب يحصى على الفرد عمله، و عن كتاب يحصى على الأمة عملها، و هذا تمييز دقيق بين العمل الفردى الذى ينسب إلى الفرد و بين عمل الامة، اى العمل الذى له ثلاثة أبعاد، و العمل الذى له بعدان، العمل الذى له بعدان لا يدخل الا فى كتاب الفرد، و اما العمل الذى له ثلاثة أبعاد فهو يدخل فى الكتابين معا، باعتبار البعدين فى كتاب الفرد و يحاسب الفرد عليه، و باعتبار البعد الثالث يدخل فى كتاب الأمة و يعرض على الأمة و تحاسب الامة على أساسه.

لاحظوا قوله سبحانه و تعالى.

وَ تَرى كُلَّ أُمَّةٍ جاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعى إِلى كِتابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ. هـذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ «۱».

هنا القرآن الكريم يتحدث عن كتاب للامة، أمة جاثية بين يدى ربها و يقدم لها كتابها، يقدم لها سجل نشاطها و حياتها التى مارستها

كأمة، هذا العمل الهادف ذو الابعاد الثلاثة يحتويه هذا الكتاب، و هذا الكتاب ليس تاريخ الطبرى- انظروا إلى العبارة- يقول:

(۱) سورة الجاثية: الآية/ ۲۸- ۲۹.

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۷۸

إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فهو لا يسجل الوقائع الطبيعية، الفسلجيّة، الفيزيائية، إنّما يحدد و يستنسخ ما كانوا يعملون كأمة. بحيث ينسب للامة و تكون الأمة مدعوة إلى كتابها. هذا العمل هو الذى يحويه هذا الكتاب. بينما فى آية اخرى نلاحظ قوله سبحانه و تعالى:

وَ كُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَ نُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كِتاباً يَلْقاهُ مَنْشُوراً، اقْرَأْ كِتابَكَ كَفى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً «۱».

هنا الموقف يختلف، هنا كل انسان مرهون بكتابه، لكل انسان كتاب لا يغادر صغيرة و لا كبيرة من اعماله، من حسناته و سيئاته، من هفواته و سقطاته، من صعوده و هبوطه، الكتاب الذى كتب بعلم من لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الارض و السماء. كل انسان قد يفكر ان بامكانه ان يخفى نقطة ضعف، ان يخفى ذنبا، ان يخفى سيئة عن جيرانه، أو قومه، أو امته، أو اولاده، أو حتى عن نفسه، و لكن هذا الكتاب لا يغادر صغيرة و لا كبيرة الا أحصاها.

هذا الكتاب الفرد و ذاك كتاب الامة. هناك كتاب لامة جاثية بين يدى ربها، و هنا لكل فرد كتاب. هذا التمييز النوعى القرآنى بين كتاب الامة و كتاب الفرد، هو تعبير آخر عما قلناه، من ان العمل التاريخى هو ذاك العمل الذى يتمثل فى كتاب الامة. العمل الذى له ابعاد ثلاثة. بل ان الذى يستظهر و يلاحظ من عدد آخر من الآيات القرآنية الكريمة، انه ليس فقط يوجد كتاب للفرد و يوجد كتاب للامة، بل يوجد احضار للفرد و يوجد احضار للامة، هناك احضاران بين يدى اللّه سبحانه، الاحضار الفردى يأتى فيه كل انسان فردا فردا، لا يملك ناصرا و لا معينا، الا العمل الصالح و القلب السليم و الايمان باللّه و ملائكته و كتبه و رسله، هذا هو الاحضار الفردى. قال اللّه تعالى:

(۱) سورة الاسراء: الآية/ ۱۳.

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۷۹

إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمنِ عَبْداً، لَقَدْ أَحْصاهُمْ وَ عَدَّهُمْ عَدًّا وَ كُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَرْداً «۱».

و هناك احضار آخر، احضار للامة بين يدى اللّه سبحانه و تعالى، كما يوجد هناك سجلان، كذلك يوجد احضاران كما تقدم، ترى كل امة جاثية كل امة تدعى إلى كتابها، ذاك احضار للجماعة، و المستأنس به من سياق الآيات الكريمة، ان هذا الاحضار الثانى يكون من اجل اعادة العلاقات إلى نصابها الحق، العلاقات فى داخل كل امة قد تكون غير قائمة على اساس الحق، قد يكون الانسان المستضعف فيها جديرا بأن يكون فى اعلى الامة، هذه الامة تعاد فيها العلاقات إلى نصابها الحق. هذا هو الشىء الذى سماه القرآن الكريم بيوم التغابن، كيف يحصل التغابن؟ .. يحصل التغابن عن طريق اجتماع المجموعة، ثم كل انسان بقدر ما كان مغبونا فى موقعه و وجوده فى الامة يأخذ حقه، اسمعوا قوله تعالى:

يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذلِكَ يَوْمُ التَّغابُنِ «۲».

اذن فهناك سجلان: هناك سجل لعمل الفرد، و هناك سجل لعمل الامة، و عمل الامة هو عبارة عما قلناه من العمل الذى يكون له ثلاثة ابعاد، بعد من ناحية العامل هو ما يسميه ارسطو ب «العلة الفاعلية»، و بعد من ناحية الهدف هو ما يسميه ارسطو ب «العلة الغائية»، و بعد من ناحية الأرضية و امتداد الموج هو ما يسمونه ب «العلة المادية». هذا العمل ذو الابعاد الثلاثة هو موضوع سنن التاريخ، و هو عمل المجتمع.

لكن لا- ينبغى ان يوهم ذلك ما توهمه بعض المفكرين الاوروبيين كهيغل و غيره، من ان المجتمع كائن عملاق له وجود وحدوى عضوى متميز عن سائر

---

(۱) سورة مريم آية/ ۹۵.

(۲) سورة التغابن: الآية/ ۹.

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۸۰

الافراد، و كل فرد فرد ليس الا بمثابة الخلية فى هذا العملاق الكبير، الذى يتخذ من كل فرد نافذة على الواقع، بقدر ما يمكن ان يجسد فى هذا الفرد من قابلياته هو، و من ابداعه هو، اذن كل قابلية و كل ابداع، ليسا إلا قابلية ذلك العملاق و إبداعه، و كل فرد انما هو نافذة من النوافذ التى يعبر عنها ذلك العملاق الهيجلى.

هذا التصور، اعتقد به جملة من الفلاسفة الاوروبيين تمييزا لعمل المجتمع عن عمل الفرد، الا ان هذا التصور ليس صحيحا، و لسنا بحاجة إلى الاغراق فى الخيال إلى هذه الدرجة، لكى ننحت هذا العملاق الاسطورى من هؤلاء الافراد، ليس عندنا الا الافراد، إلا زيد و بكر و خالد، ليس عندنا ذلك العملاق المستتر من ورائهم، طبعا مناقشة هيجل من الزاوية الفلسفية تخرج عن حدود هذا البحث، لان هذا التفسير الهيجلى للمجتمع مرتبط فى الحقيقة بكامل الهيكل النظرى لفلسفته، هذا التصوير ليس صحيحا، و لسنا بحاجة إلى مثل هذا الافتراض الاسطورى، لكى نميز بين عمل الفرد و عمل المجتمع، التمييز بين عمل الفرد و عمل المجتمع يتم من خلال ما اوضحناه من البعد الثالث.

عمل الفرد هو العمل الذى يكون له بعدان، فان اكتسب بعدا ثالثا كان عمل المجتمع، باعتبار ان المجتمع يشكل أرضية له، يشكل علة مادية له. يدخل حينئذ فى سجل كتاب الامة الجاثية بين يدى ربها. هذا هو ميزان الفرق بين العملين.

اذن الشىء الذى نستخلصه مما تقدم، ان موضوع السنن التاريخية هو العمل الهادف الذى يتخذ من المجتمع أو الأمة أرضية له، على اختلاف سعة الموجة و ضيق الموجة.

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۸۱

-۴- صيغ السنن التاريخية فى القرآن

اشارة

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۸۳

حان الأوان لكى نتعرف على الصيغ المتنوعة التى تتخذها السنة التاريخية القرآنية.

كيف يتم التعبير موضوعيا عن القانون التاريخى فى القرآن الكريم؟

ما هى الاشكال التى تتخذها سنن التاريخ فى مفهوم القرآن الكريم؟

هناك ثلاثة أشكال تتخذها السنة التاريخية فى القرآن الكريم، لا بد من استعراضها و مقارنتها و التدقيق فى أوجه الفرق بينها.

الشكل الأول:

للسنة التاريخية، هو شكل القضية الشرطية، و فى هذا الشكل، تتمثل السنة التاريخية فى قضية شرطية تربط بين حادثتين او مجموعتين من الحوادث على الساحة التاريخية، و تؤكد العلاقة الموضوعية بين الشرط و الجزاء، و انه متى ما تحقق الشرط تحقق الجزاء. و هذه

صياغة نجدها فى كثير من القوانين و السنن الطبيعية و الكونية فى مختلف الساحات الاخرى.

فمثلا: حينما نتحدث عن قانون طبيعى لغليان الماء، نتحدث بلغة القضية الشرطية، نقول بأن الماء اذا تعرض للحرارة و بلغت الحرارة درجة مائة مثلا ـ فى مستوى معين من الضغط، سوف يحدث الغليان، هذا قانون طبيعى يربط بين الشرط و الجزاء و يؤكد ان حالة التعرض للحرارة، ضمن مواصفات معينة تذكر فى طرف الشرط تستتبع حادثة طبيعية معينة، و هى غليان هذا الماء، هذا القانون مصاغ على نهج القضية الشرطية. و من الواضح ان هذا القانون

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۸۴

الطبيعى لا ـ ينبئنا عن تحقق الشرط و عدم تحققه، لا ينبئنا عن ان الماء هل سوف يتعرض للحرارة أولا؟ هل ان حرارة الماء ترتفع إلى الدرجة المطلوبة ضمن هذا القانون أو لا؟ هذا القانون لا يتعرض لمدى وجود الشرط و عدم وجوده، و لا ينبئنا بشىء عن تحقق الشرط ايجابا أو سلبا، و انما ينبئنا عن ان الجزاء لا ينفك عن الشرط، فمتى ما وجد الشرط وجد الجزاء، و أن الغليان نتيجة مرتبطة موضوعيا بالشرط، هذا تمام ما ينبئنا عنه هذا القانون المصاغ بلغة القضية الشرطية.

و مثل هذه القوانين، تقدم خدمة كبيرة للانسان فى حياته الاعتيادية، و تلعب دورا عظيما فى توجيهه، لان الانسان ضمن تعرّفه على هذه القوانين، يصبح بامكانه ان يتصرف بالنسبة إلى الجزاء، ففى كل حالة يرى انه بحاجة إلى الجزاء يعمل هذا القانون و يوفر شروطه، ففى كل حالة يكون الجزاء متعارضا مع مصالحه و مشاعره، يحاول الحيلولة دون توفر شروط هذا القانون.

اذن القانون الموضوع بصيغة القضية الشرطية، موجّه عملى للانسان فى حياته.

و من هنا تتجلى حكمة اللّه سبحانه فى صياغة نظام الكون على مستوى القوانين و على مستوى الروابط المضطردة و السنن الثابتة، لان صياغة الكون ضمن هكذا روابط و سنن، هو الذى يجعل الانسان يتعرف على موضع قدميه، و على الوسائل التى يجب ان يسلكها فى سبيل تكييف بيئته و حياته و الوصول إلى إشباع حاجته، لو ان الغليان فى الماء كان يحدث صدفة و من دون رابطة قانونية مضطردة مع حادثة اخرى كالحرارة، لما استطاع الانسان ان يتحكم فى هذه الظاهرة، او يخلقها متى ما كانت حياته بحاجة إليها، و يتفاداها متى ما كانت حياته بحاجة إلى تفاديها، إنما كان له هذه القدرة، باعتبار أن هذه الظاهرة وضعت فى موضع ثابت من سنن الكون، و طرح على الانسان القانون الطبيعى

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۸۵

بلغة القضية الشرطية، فأصبح يتصرف ازاء هذا القانون بوعى و اختيار و إرادة.

نفس الشىء نجده فى الشكل الاول من السنن التاريخية القرآنية، فان عددا كبيرا من السنن هذه فى القرآن، قد تمت صياغته على شكل القضية الشرطية التى تربط ما بين حادثتين اجتماعيتين، أو تاريخيتين.

قرأنا فى ما سبق، استعراضا للآيات الكريمة التى تدل على سنن التاريخ فى القرآن. جملة من تلك الآيات الكريمة مفادها هو السنة التاريخية بلغة القضية الشرطية، فمثلا الآية الكريمة:

إِنَّ اللَّهَ لا ـ يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ فمرجع هذا المفاد القرآنى، إلى ان هناك علاقة بين تغييرين: بين تغيير المحتوى الداخلى للانسان، و بين الوضع الظاهرى للبشرية، متى ما وجد ذاك التغيير فى أنفس القوم، وجد هذا التغيير فى بناء القوم و كيانهم، هذه الآية إذن، بيّن القانون فيها بلغة القضية الشرطية.

وَ أَنْ لَوِ اسْتَقامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْناهُمْ ماءً غَدَقاً قلنا فى ما سبق، ان هذه الآية الكريمة تتحدث بلغة القضية الشرطية عن سنة من سنن التاريخ، تربط وفرة الانتاج بعدالة التوزيع، كما هو الواضح من صياغتها النحوية أيضا.

وَ إِذا أَرَدْنا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنا مُتْرَفِيها فَفَسَقُوا فِيها فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْناها تَدْمِيراً هذه الآية أيضا، استبطأت سنة تاريخية بينت بلغة القضية الشرطية عند ما

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۸۶

ربطت بين امرين، بين تأمير الفساق و المترفين فى المجتمع، و بين دمار ذلك المجتمع و انحلاله، فمتى ما وجد الشرط يوجد الجزاء، هذا هو الشكل الاول من اشكال السنة التاريخية فى القرآن.

الشكل الثانى:

الذى تتخذه السنن التاريخية، شكل القضية الفعلية الناجزة المحققة. و هذا الشكل ايضا نجد له امثلة و شواهد فى القوانين الطبيعية و الكونية. مثلا: العالم الفلكى حينما يصدر حكما علميا على ضوء قوانين مسارات الفلك، بأن الشمس سوف تنكسف فى اليوم الفلانى، أو أن القمر سوف ينخسف كذلك، هذه قضية علمية، الا أنها قضية وجودية ناجزة، و ليست قضية شرطية، و لذا لا يملك الانسان اتجاه هذه القضية أن يغير من ظروفها و أن يعدل من شروطها، لأنها تخبر عن وقوع هذه الحادثة على أى حال. كذلك القرارات العلمية التى تصدر عن الانواء الجوية، المطر ينهمر على المنطقة الفلانية، هذا أيضا يعبر عن قضية فعلية وجودية لم تصغ بلغة القضية الشرطية، و انما صيغت بلغة التنجيز و التحقيق، بلحاظ مكان معين و زمان معين.

هذا هو الشكل الثانى من اشكال السنن التاريخية. و سوف اذكر فيما بعد ان شاء اللّه عند تحليل عناصر المجتمع أمثلة لهذا الشكل من القرآن الكريم.

هذا الشكل من السنن التاريخية، هو الذى أوحى فى الفكر الاوروبى- كما سبقت الاشارة اليه- بتوهم التعارض بين فكرة سنن التاريخ و فكرة اختيار الانسان و ارادته، لان سنن التاريخ ما دامت هى التى تنظم مسار الانسان و حياة الانسان، اذن ما ذا يبقى لارادة الانسان؟ هذا التوهم، أدى ببعض المفكرين إلى القول بأن الانسان له دور سلبى فقط و ليس دورا ايجابيا، فهو يتحرك كما تتحرك الآلة وفقا لظروفها الموضوعية، و لعله يأتى بعض التفصيل أيضا عن هذه الفكرة.

و ذهب بعض آخر فى مقام التوفيق ما بين هاتين الفكرتين و لو ظاهريا،

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۸۷

إلى أن اختيار الانسان نفسه هو أيضا يخضع لسنن التاريخ. و هذا الموقف يستبطن تضحية باختيار الانسان لكن بصورة غير مكشوفة.

و ذهب بعض المفكرين الأوروبيين إلى اختيار موقف معاكس، عند ما اتجهوا إلى التضحية بسنن التاريخ لحساب اختيار الانسان، بحجة أنه ما دام الانسان مختارا، فلا بد من أن تستثنى الساحة التاريخية من الساحات الكونية فى مقام التقنين الموضوعى، فلا سنن موضوعية للساحة التاريخية حفاظا منهم على رادة الانسان و اختياره.

و هذه المواقف كلها خاطئة، لانها جميعا تقوم على وهم الاعتقاد بوجود تناقض أساسى بين مقولة السنة التاريخية و مقولة الاختيار الإنسانى، و هذا التوهم نشأ من قصر النظر على الشكل الثانى من اشكال السنة التاريخية تلك المصاغة بلغة القضية الفعلية الوجودية الناجزة، لو كنا نقصر النظر على هذا الشكل من سنن التاريخ، و التزمنا بأنه يستوعب كل الساحة التاريخية، لكان هذا التوهم واردا، و لكنا يمكننا ابطال هذا التوهم، عن طريق الالتفات إلى الشكل الاول من اشكال السنة التاريخية، الذى تصاغ فيه السنة التاريخية بوصفها قضية شرطية، و كثيرا ما تكون هذه القضية الشرطية فى شرطها معبرة عن إرادة الانسان و اختياره، باعتبار ان اختيار الانسان يمثل المحور فى هذه القضية الشرطية لأنه شرطها. لكن ما هو الشرط؟

الشرط: هو فعل الانسان، هو إرادة الانسان إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ «۱»، التغيير هنا أسند اليهم فهو فعلهم، ابداعهم و ارادتهم. و حينما يحتل ابداع الانسان و اختياره موضوع الشرط فى القضية الشرطية، تصبح السنة التاريخية متلائمة تماما مع اختيار الانسان، بل إن السنة حينئذ، تزيد الإنسان

---

(۱) سورة الرعد: الآية/ ۱۱.

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۸۸

اختيارا و قدرة و تمكنا من التصرف فى موقفه، عينا كما كان القانون الطبيعى يزيد من قدرة الانسان على التحكّم فى الغليان، بعد أن عرف شروطه و ظروفه، كذلك السنن التاريخية ذات الصيغ الشرطية، هى فى الحقيقة ليست على حساب إرادة الانسان، و ليست نقيضا لاختيار الانسان بل هى مؤكدة لهذا الاختيار، توضح للانسان نتائج الاختيار، لكى يستطيع أن يقتبس ما يريده من هذه النتائج دون غيرها، و يتعرّف على الطريق الذى يسلك به إلى ما أراد من هذه النتيجة أو تلك بوعى و ادراك.

الشكل الثالث:

للسنة التاريخية، و هو شكل اهتم به القرآن الكريم اهتماما كبيرا، هو السنة التاريخية المصاغة على صورة اتجاه طبيعى فى حركة التاريخ، لا على صورة قانون صارم حدّى، و لكى يتضح ذلك، لا بد و ان نطرح الفكرة الاعتيادية التى نعيشها فى اذهاننا عن القانون. القانون العلمى كما نتصوره عادة، عبارة عن تلك السنّة التى لا تقبل التحدى و لا النقض من قبل الانسان و هو بالتالى محكوم لها و لا يستطيع الخروج عن دائرة طاعتها، لانها قانون من قوانين الكون و الطبيعة. يمكنه ان لا يصلى، لان وجوب الصلاة حكم تشريعى و ليس قانونا تكوينيا، يمكنه أن يشرب الخمر، لان حرمة شرب الخمر قانون تشريعى و ليس قانونا تكوينيا، لكنه لا يمكنه ان يتحدى القوانين الكونية و السنن الموضوعية، مثلا: لا يمكنه أن يجعل الماء لا يغلى اذا توفرت شروط الغليان، كما لا يمكنه ان يؤخر الغليان لحظة عن موعده المعين، لأن هذا قانون و القانون صارم، و الصرامة تأبى التحدى. هذه هى الفكرة التى نتصورها عادة عن القوانين، و هى فكرة صحيحة إلى حد ما، لكن ليس من الضرورى ان تكون كل سنّة طبيعية موضوعية على هذا الشكل، بحيث تأبى التحدى من قبل الانسان بهذه الطريقة، بل هناك اتجاهات موضوعية فى حركة التاريخ و فى مسار الانسان، لكن مع شىء من المرونة، بحيث انها تقبل التحدى و لو على شوط قصير، و ان لم تقبل التحدى على شوط طويل، و هذا لا يعنى أنها ليست اتجاهات تمثل واقعا موضوعيا فى حركة

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۸۹

التاريخ، هى اتجاهات و لكنها مرنة تقبل التحدى، لكنها مع ذلك قد تحطم هذا المتحدى بسنن التاريخ نفسها. فمثلا: نقول: بأن هناك فى تركيب الانسان و تكوينه اتجاها موضوعيا لا تشريعيا إلى اقامة العلاقات المعينة بين الذكر و الانثى فى المجتمع ضمن اطار من أطر النكاح و الاتصال، هذا الاتجاه ليس تشريعيا و انما هو اتجاه موضوعى، ركّب فى طبيعة الانسان و تركيبته، هذه سنة، لكنها سنة على مستوى الاتجاه، لا على مستوى القانون.

لما ذا؟

لان التحدى لهذه السنة لحظة أو لحظات ممكن، أمكن لقوم لوط أن يتحدوا هذه السنة فترة من الزمن، بينما لم يكن بامكانهم ان يتحدوا سنة الغليان بشكل من الاشكال، الا ان تحدى هذه السنة يؤدى إلى أن يتحطم المتحدى على المدى الطويل، و المجتمع الذى يتحدى هذه السنة يكتب بنفسه فناء نفسه، لانه يتحدى ذلك عن طريق ألوان من الشذوذ التى رفضها هذا الاتجاه الموضوعى، و تلك الالوان من الشذوذ تؤدى إلى فناء المجتمع و إلى خرابه.

و هذا ما حصل فعلا لقوم لوط.

الاتجاه إلى توزيع الميادين بين المرأة و الرجل، اتجاه موضوعى و ليس اتجاها ناشئا من قرار تشريعى، اتجاه ركّب فى طبيعة الرجل و المرأة، و لكن هذا الاتجاه يمكن ان يتحدى، يمكن استصدار تشريع يفرض على الرجل بأن يبقى فى البيت ليتولى دور الحضانة و التربية، و ان تخرج المرأة إلى الخارج لكى تتولى مشاق العمل و الجهد، و بهذا يحصل التحدى لهذا الاتجاه. لكن هذا التحدى لن

يستمر، لان سنن التاريخ سوف تجيب على هذا التحدى، لاننا بهذا سوف نخسر كل تلك القابليات التى زودت بها المرأة من قبل هذا الاتجاه لممارسة دور الحضانة و الامومة، و سوف نخسر كل تلك القابليات التى زود بها الرجل من اجل ممارسة دور يتوقف على الجلد و الصبر و الثبات و طول النفس. تماما، كما ان بناية تسلم نجارياتها إلى حداد و حداداتها إلى نجار، يمكن ان تنشأ البناية

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ٩٠

أيضا، لكن هذه البناية سوف تنهار، سوف لن يستمر هذا التحدى على شوط طويل.

و أهم مصداق يعرضه القرآن الكريم لهذا الشكل من السنن: الدين، فالقرآن الكريم يرى أن الدين نفسه ليس مجرد تشريع و إنما هو سنة موضوعية من سنن التاريخ، و لهذا يعرض الدين على شكلين: تارة يعرضه بوصفه تشريعا كما يقول علم الاصول، كما فى قوله تعالى: شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً وَ الَّذِی أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَ ما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى وَ عِيسى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَ لا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ما تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ «۱».

هنا يبين الدين كتشريع، كأمر من اللّه سبحانه، لكن فى مجال آخر، يبينه سنة من سنن التاريخ، و قانونا داخلا فى صميم تركيب الانسان و فطرته، كما فى قوله تعالى:

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِی فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ «۲».

فالدين هنا لم يعد مجرد تشريع و قرار من أعلى، و انما هو فطرة للناس، هو فطرة اللّه التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق اللّه، يعنى كما انك لا يمكنك ان تنتزع من الانسان أى جزء من اجزائه التى تقوّمه، كذلك لا يمكنك ان تنتزع من الانسان دينه، الدين ليس مقولة حضارية مكتسبة يمكن اعطاؤها و يمكن الاستغناء عنها، لانها فى حالة من هذا القبيل، لا تكون فطرة اللّه التى فطر الناس عليها، و لا تكون خلق اللّه الذى لا تبديل له، بل تكون من المكاسب التى حصل عليها الانسان من خلال تطوراته المدنية و الحضارية على مرّ التاريخ.

الدين خلق اللّه

(۱) سورة الشورى: الآية/ ۱۳.

(۲) سورة الروم: الآية/ ۳۰.

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ٩١

فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِی فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ و كلمة «لا» هنا ليست ناهية بل نافية، يعنى هذا الدين لا يمكن أن ينفك عن خلق اللّه ما دام الانسان انسانا، فالدين يعتبر سنّة لهذا الانسان.

و لكنها ليست سنة صارمة على مستوى قانون الغليان، سنة تقبل التحدى على الشوط القصير، كما كان بامكان تحدى سنة النكاح و سنة اللقاء و التزاوج الطبيعى بين الجنسين عن طريق الشذوذ الجنسى، لكن على شوط قصير، كذلك يمكننا ايضا تحدى هذه السنة على شوط قصير عن طريق الالحاد، و لكن هذا التحدى لا يكون الا على شوط قصير، لان العقاب سوف ينزل بالمتحدى، العقاب هنا ليس بمعنى العقاب الذى ينزل على من يرتكب مخالفة شرعية على يد ملائكة العذاب فى السماء يوم القيامة، و انما العقاب هنا ينزل من سنن التاريخ نفسها حيث يفرضه على كل أمة تريد أن تبدل خلق اللّه سبحانه، و لا تبديل لخلق اللّه، مع الالتفات إلى ان نزول هذا العقاب ليس فوريا بالضرورة، لأن الفورية التى نفهمها فى حياتنا الاعتيادية تختلف عنها بمعناها بلحاظ امتداد التاريخ الانسانى. و هذا ما ارادت الآية التالية ان تلفت الانظار اليه. قال تعالى:

وَ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وَ لَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَ إِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ «۱».

هذه الآية الكريمة تتحدث عن العذاب، واقعة فى سياق العذاب الجماعى الذى نزل بالقرى السابقة الظالمة، ثم بعد ذلك يتحدث عن

استعجال النـاس فى أيام رسول اللّه (ص) و يقولون له أين هـذا العقاب؟ أين هـذا العـذاب؟ لما ذا لا ينزل بنا نحن الآن حيث كفرنا و تحديناك، و صممنا آذاننا عن قرآنك؟ القرآن هنا يتحدث عن السرعة التاريخية التى تختلف عن السرعة الاعتيادية فيقول:

---

(۱) سورة الحج: الآية/ ۴۷

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۹۲

وَ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وَ لَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ، لانها سنة، و السنة التاريخية ثابتة، لكن:

وَ إِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ.

اليوم الواحد فى سنن التاريخ عند ربك باعتبارها كلمات اللّه كما قرأنا فى ما سبق، الف سنة. طبعا فى آية أخرى عبّر بخمسين الف سنة، و ذلك فى قوله تعالى:

تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَ الرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلًا إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً وَ نَراهُ قَرِيباً يَوْمَ تَكُونُ السَّماءُ كَالْمُهْلِ «۱».

الكلام هنا ناظر الى يوم القيامة، إلى يوم تكون السماء كالمهل، فيوم القيامة قدر بخمسين ألف سنة، اما فى الآية السابقة فهو يتكلم عن يوم توقيت نزول العذاب الجماعى وفقا لسنن التاريخ، يقول: و ان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون. و بهذا يجمع بين هاتين الآيتين فلا تعارض.

اذن فهذا شكل ثالث من السنن التاريخية، هو عبارة عن اتجاهات موضوعية فى مسار التاريخ و فى حركة الانسان و تركيبه، يمكن ان يتحدى على الشوط القصير، و لكن سنن التاريخ لا تقبل التحدى على الشوط الطويل، الا أن الشوط القصير و الطويل هنا ليس بحسب طموحاتنا و حياتنا الاعتيادية، لان اليوم الواحد فى كلمات اللّه و سننه كألف سنة مما نحسب.

و الدين هو المثال الرئيسى للشكل الثالث، من أجل أن نعرف كيف ان الدين سنة من سنن التاريخ؟ و ليس هو مجرد تشريع بل حاجة اساسية موضوعية، ما هو دوره؟ ما هو موقعه؟

لكى نعرف ذلك، يجب أن نأخذ المجتمع، و نحلل عناصره على ضوء

---

(۱) سورة المعارج: الآية/ ۴- ۸.

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۹۳

القرآن الكريم، لنصل إلى مغزى قولنا: ان الدين سنة من سنن التاريخ.

كيف نحلل عناصر المجتمع؟ نحلل عناصر المجتمع على ضوء هذه الآية لكريمة.

وَ إِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً، قالُوا أَ تَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها وَ يَسْفِكُ الدِّماءَ وَ نَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَ نُقَدِّسُ لَكَ قالَ إِنِّي أَعْلَمُ ما لا تَعْلَمُونَ «۱».

هذه الآية تعطينا أروع و ادق و أعمق صيغة لتحليل عناصر المجتمع. و نحن سوف ندرس هذه العناصر و نقارن فيما بينها، لنعرف فى النهاية أن الدين سنة تاريخية، و ليس مجرد حكم شرعى قد يطاع و قد يعصى.

---

(۱) سورة البقرة الآية/ ۳۰

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۹۵

- ۵- عناصر المجتمع فى القرآن

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۹۷

قلنا ان القرآن الكريم يقدم الدين لا بوصـفه مجرد قرار تشـريعى، بل بوصفه سنة من سنن الحياة و التاريخ، و مقوما أساسيا لخلق اللّه و لن تجد لخلق اللّه تبديلا، و لكنها سنة من الشكل الثالث. سنة تقبل التحدى على الشوط القصير، و لكن المتحدى يعاقب بسنن التاريخ نفسها. و قد أشير إلى هذه الخاصية أيضا بقوله:

وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ هذه العبارة التى ختمت بها الآية الكريمة:

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ «۱».

ففى هـذه العبارة إشارة إلى هـذه السنّة، اى ان للناس ان يتخـذوا مواقف سـلبية و إهماليـة تجاه هذه السـنة، و لكنه اهمال على الشوط القصير لا على الشوط الطويل.

و قلنا أيضا بأن توضيح واقع هـذه السـنة القرآنيـة من سـنن التاريخ، يتطلب منا ان نحلل عناصـر المجتمع، فما هى عناصـر المجتمع من زاوية نظر القرآن الكريم؟ و ما هى مقومات المركّب الاجتماعى؟ و كيف يتم التنفيذ بين

---

(۱) سورة الروم الآية/ ۳۰.

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۹۸

هـذه العناصـر و المقومات؟ و ضـمن أى اطار؟ و وفق أيـة معادلـة؟ هذه الاسـئلة نحصل على جوابها فى النص القرآنى الشـريف الذى تحدث عن خلق الانسان الاول:

وَ إِذْ قالَ رَبُّکَ لِلْمَلائِکَهِ إِنِّی جاعِلٌ فِی الْأَرْضِ خَلِيفَةً قالُوا أ تَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها وَ يَسْفِکُ الدِّماءَ وَ نَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِکَ وَ نُقَدِّسُ لَکَ قالَ إِنِّی أَعْلَمُ ما لا تَعْلَمُونَ «۱».

حينما نسـتعرض هذه الآية الكريمة، نجد ان اللّه سـبحانه ينبئ الملائكة بأنه قرر انشاء مجتمع على الأرض، فما هى العناصـر التى يمكن استخلاصها من العبارة القرآنية التى تتحدث عن هذه الحقيقة العظيمة؟

هناك ثلاثة عناصر يمكن استخلاصها من العبارة القرآنية:

أولا- الانسان.

ثانيا- الارض أو الطبيعة على وجه عام. السنن التاريخية فى القرآن ۹۸ - ۵ - عناصر المجتمع فى القرآن

إِنِّی جاعِلٌ فِی الْأَرْضِ خَلِيفَةً.

ثالثا- العلاقة المعنوية التى تربط الانسان بالأرض و بالطبيعة، و تربط من ناحية اخرى الانسان بأخيه الانسان، و هذه العلاقة المعنوية هى التى سمّاها القرآن الكريم بالاستخلاف، هذه هى عناصر المجتمع.

و نحن حينما نلاحظ المجتمعات البشـرية، نجد انها جميعا تشترك بالعنصـر الاول و العنصر الثانى، لا يوجد مجتمع بدون انسان يعيش مع أخيه الانسان، و لا يوجد مجتمع بدون ارض أو طبيعة يمارس إنسانه عليها دوره الاجتماعى.

و اما العنصـر الثالث: و هو العلاقـة، ففى كل مجتمع علاقـة كما ذكرنا، و لكن المجتمعات تختلف فى طبيعـة هـذه العلاقة، و فى كيفية صياغة هذه الطبيعة.

---

(۱) سورة البقرة الآية/ ۳۰.

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۹۹

فالعنصر الثالث هو العنصر المرن و المتحرك من عناصر المجتمع، و كل مجتمع يبنى هـذه العلاقـة المعنوية التى تربط الانسان بأخيه الإنسان من جانب، و بالطبيعة من جانب آخر، بشكل قد يتفق و قد يختلف مع طريقة بناء المجتمع الآخر لهذه العلاقة.

و هذه العلاقة لها صيغتان اساستان:

إحداهما: صيغة ثلاثية. و الأخرى: صيغة رباعية.

الصيغة الرباعية: طرحها القرآن الكريم تحت اسم الاستخلاف، هى الصيغة التى ترتبط بموجبها الطبيعة و الانسان و يرتبط الانسان فيها بدوره مع أخيه الانسان.

هـذه اطراف ثلاثـة. فأين الطرف الرابع؟. هـذا الطرف الرابع خارج عن اطار المجتمع، و لكن الصـيغة الرباعية للعلاقة الاجتماعية، تعتبر هذا الطرف الرابع مقوما من المقومات الاساسية للعلاقة الاجتماعية على الرغم من ذلك الخروج، هذا الطرف الرابع، استبطنه المفهوم الذى طرحه القرآن الكريم:

الاستخلاف. و نحن عند التحليل، نجد ان الاستخلاف ذو اربعة اطراف، لأنه يفترض مستخلفا ايضا. لا بد من مستخلف و مستخلف عليه، و مستخلف. فهنـاك اضافـة إلى الانسـان و اخيه الانسان و الطبيعـة طرف رابع هو المستخلف، و المستخلف هو اللّه سبحانه، و المستخلف هو الانسـان و اخوه الانسـان، أى الجماعـة البشـرية ككـل، و المستخلف عليه هو الارض و مـا عليها و من عليها، فالعلاقة الاجتماعية ضمن صيغة الاستخلاف، تكون ذات اطراف اربعة، و هذه الصيغة ترتبط بوجهة نظر معينة نحو الحياة و الكون تقول: بانه لا سيـد و لا مالك و لا إله للكون و للحياة الا اللّه سبحانه، و ان دور الانسان فى ممارسة حياته، انما هو دور الاستخلاف و الاستئمان، و أى علاقـة تنشأ بين الانسان و الطبيعة فهى فى جوهرها ليست علاقة مالك بمملوك، و انما هى علاقة أمين على امانة استؤمن عليها، و أى علاقة تنشأ بين الانسان و اخيه الانسان، مهما كان المركز الاجتماعى لهذا أو لذاك، فهى علاقة استخلاف و تفاعل، بقدر

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۱۰۰

ما يكون هـذا الانسان او ذاك مؤديا لواجبه اتجاه هـذه الخلافـة، و ليست علاقـة سيادة او الوهيـة أو مالكيـة. و توجـد فى مقابل هـذه الصـيغة الرباعية، صـيغة ثلاثية الاطراف، تربط بين الانسان و الانسان، و الانسان و الطبيعة، و لكنها تقطع صـلة هذه الاطراف مع الطرف الرابع، و تجرد تركيب العلاقـة الاجتماعيـة عن البعـد الرابع، عن اللّه سبحانه و تعـالى. و تفـترض ان الانسـان نفسه هو البدايـة. و بهـذا تحولت نظرة كل جزء الى الجزء الآخر داخل هـذا التركيب و هذه الصـيغة. و اختلت المعادلة، و اهتزت البنية الاجتماعية حيث وجدت الالوان المختلفة للملكية و للسيادة، سيادة الانسان على أخيه الانسان بأشكالها المختلفة التى استعرضها التاريخ، و ذلك شىء طبيعى، لأن إضافة الطرف الرابع للصيغة الرباعية ليس مجرد اضافة عددية، بل ان هذه الاضافة تحدث تغييرا نوعيا فى بنية العلاقة الاجتماعية، و فى تركيب الاطراف الثلاثـة الاخرى نفسـها، إذ يعـود الانسـان مع إخـوانه من بنى الانسـان، مجرد شـركاء فى حمـل هـذه الامانـة و الاستخلاف، و تعود الطبيعـة بكل ما فيها من ثروات، و بكل ما عليها و من عليها، مجرد أمانـة لا بد من رعاية واجبها و اداء حقها و قد تبنّى القرآن الكريم هذه الصيغة للعلاقة الاجتماعية كوجه بارز من وجوه الدين، و كسنة تاريخية. و لكن كيف؟

هذه الصيغة الرباعية عرضها القرآن الكريم على نحوين: عرضها تارة بوصفها فاعلية ربانية من زاوية دور للّه سبحانه و تعالى فى العطاء. و هذا هو العرض الذى قرأناه «إِنِّی جاعِلٌ فِی الْأَرْضِ خَلِیفَةً».

هذه العلاقة الرباعية معروضة فى هذا النص الشريف باعتبارها عطاء من اللّه، و جعلا يمثل الدور الايجابى و التكريمى من رب العالمين للانسان، و عرض الصـيغة الرباعية من زاوية ارتباطها بالانسان، و تقبل الانسان لها، و ذلك فى قوله سبحانه و تعالى: إِنَّا عَرَضْـنَا الْأَمانَةَ عَلَی السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ الْجِبالِ

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۱۰۱

فَأَبَیْنَ أَنْ یَحْمِلْنَها وَ أَشْفَقْنَ مِنْها وَ حَمَلَهَا الْإِنْسانُ إِنَّهُ کانَ ظَلُوماً جَهُولًا «۱».

فالامانة هى الوجه التقبلى للخلافة، و الخلافة هى الوجه الفاعلى و العطائى للامانة.

و هذه الامانة التى تقبلها الانسان و تحمّلها لم تعرض على هذا الانسان فى هذه الآية، بوصفها تكليفا أو طلبا، و ليس المقصود من تقبل الانسان لهـذه الأمانـة هو تقبله الخلافـة على مسـتوى الامتثال و الطاعـة، بقرينة ان هذا كان معروضا على السـماوات و الارض و الجبال ايضا، و من الواضح انه لا معنى لتكليف السماوات و الجبال و الارض. و معنى ذلك انه عرض تكوينى لا عرض تشريعى، أى أن هذه العطيـة الربانيـة كـانت تفتش عن الموضع القابـل لها فى الطبيعـة، و المنسـجم معها بطبيعته، و بفطرته، و بتركيبه التاريخى و الكونى، و الانسـان هو الكائن الوحيـد الـذى كان بحكم تركيبه و بنيته، و بحكم فطرة اللّه المزكورة فيه منسـجما دون غيره من الكائنات مع هـذه العلاقة الاجتماعية ذات الاطراف الاربعة التى بها تصبح أمانة، و خلافة. و من هنا كان تقبله لها تقبلا تكوينيا بحكم دخولها فى تكوينه الانسانى و فى تركيب مساره التاريخى.

و نلاحـظ فى هـذه الآيـة الكريمـة، الاشارة إلى هويـة هـذه السـنة التاريخيـة و انها سـنة من الشـكل الثالث، سـنة تقبل التحـدى و تقبل العصيان، ليست من تلك السـنن التى لا تقبل التحـدى ابـدا و لو لحظـة، قال تعالى: وَ حَمَلَهَا الْإِنْسانُ إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولًا هذه العبارة الاـخيرة إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولًا، تأكيـد على طابع هـذه السـنة، و ان هـذه السـنة على الرغم من انها سـنة من سـنن التاريـخ و لكنها تقبل التحدى، تقبل ان يقف الانسان منها موقفا سلبيا، هذا التعبير يوازى تعبير: وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ فى الآية السابقة.

اذن، الآية السابقة استخلصنا منها ان الدين سنة من سنن الحياة و من

---

(۱) سورة الأحزاب: الآية/ ۷۲.

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۱۰۲

سنن التاريـخ، و من هـذه الآيـة نسـتخلص ان صـيغة الـدين للحياة، التى هى عبارة عن العلاقة الاجتماعية الرباعية، التى يسـميها القرآن بالخلافة و الامانة الاستخلاف، سنة من سنن التاريخ فى المفهوم القرآنى.

فالحقيقـة، ان الآيـة الاولى و الآيـة الثانيـة متطابقتان تماما فى مفادهما، لانه فى الآيـة السابقـة قال: فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ «۱».

فهـذا تأكيـد على أن مـا هو الفطرة، و مـا هو داخل فى تكوين الانسان و تركيبه و فى مسار تاريخه هو الـدين قيّما على الحياة و مهيمنا عليها، فهو بالتالى سـنة لهـذه الحياة و للتاريـخ. و الـدين بهذا المنحى هو العلاقة الاجتماعية الرباعية الاطراف، التى يدخل فيها اللّه بعدا رابعا، لكى يحدث تغييرا فى بنية هذه العلاقة، لا لكى تكون مجرد اضافة عددية.

أمـا كيف كـان هـذا الطرف الرابع، و هو المسـتخلف سـبحانه، مقوما اساسيا لمسار الانسان على الساحـة التاريخيـة؟ لكى نتعرف على ذلك، لا بـد من ان نتعرف على دور كل من الركنين الثابتين فى العلاقة الاجتماعية و هما الانسان و الطبيعة. هذان الركنان داخلان فى الصيغة الثلاثية و داخلان فى الصيغة الرباعية، و من هنا نسميهما بالركنين الثابتين فى العلاقة الاجتماعية.

ما هو دور الانسان فى عملية التاريخ من زاوية النظرة القرآنية للتاريخ و سنن الحياة؟ ما هو دور الانسان فى العلاقة الاجتماعية؟ و ما هو دور الطبيعة فى العلاقة الاجتماعية؟

على ضوء تشـخيص هـذين الـدورين و تحديـد الموقفين، سوف يتضـح دور الطرف الرابع الـذى تتميز به الصـيغة الرباعية عن الصـيغة الثلاثية، و يتضح أن هذا الطرف الرابع، عنصـر ضـرورى بحكم سـنة التاريخ، و تركيب خلقة الانسان، و لا بدّ و أن يندمج مع الأطراف الأخرى لتكوين علاقة اجتماعية رباعية الأطراف.

---

(۱) سورة الروم الآية/ ۳۰.

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۱۰۳

– ۶– القرآن و دور الانسان فى حركة التاريخ

اشارة

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۱۰۵

الآن نتحدث عن دور الانسان فى الحركة التاريخية من زاوية مفهوم القرآن الكريم.

من الواضح على ضوء المفاهيم التى قرأناها سابقا، أن المحتوى الداخلى للانسان هو الاساس لحركة التاريخ، التى تتميز عن كل الحركات الاخرى بانها حركة غائية لا سببية فقط، غائية متطلعة إلى المستقبل. فالمستقبل هو المحرك لأى نشاط من النشاطات التاريخية. و المستقبل معدوم فعلا، و انما يحرك من خلال الوجود الذهنى، الذى هو الحافز و المحرك و المدار لحركة التاريخ، و هذا الوجود الذهنى، يعبر بجانب منه عن الفكر، و فى جانب آخر منه عن الارادة، و بالامتزاج بين الفكر و الارادة، تتحقق فاعلية المستقبل و محركيته للنشاط التاريخى على الساحة الاجتماعية.

و المحتوى الداخلى الشعورى للإنسان يتمثل فى هذين الركنين الاساسيين، و هما الفكر و الارادة. اذن المحتوى الداخلى للانسان، هو الذى يصنع هذه الغايات، و يجسد هذه الاهداف من خلال مزجه بين فكرة و إرادة.

و بهذا صحّ القول بأن المحتوى الداخلى للانسان هو القاعدة لحركة التاريخ، فالبناء الاجتماعى العلوى بكل ما يضم من علاقات و انظمة و افكار و تفاصيل مرتبط بهذه القاعدة، و يكون تغيره و تطوره تابعا لتغير هذه القاعدة

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۱۰۶

و تطورها، فاذا تغير الاساس تغير البناء العلوى، و اذا بقى الاساس ثابتا، بقى البناء العلوى ثابتا.

فالعلاقة بين المحتوى الداخلى للانسان و البناء الفوقى للمجتمع، علاقة تبعية، و مسبب بسبب، و هى تمثل سنة تاريخية تقدم الكلام عنها فى قوله سبحانه و تعالى: إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ «۱». هذه الآية واضحة فى ان المحتوى الداخلى للانسان، هو القاعدة و الاساس للبناء العلوى، للحركة التاريخية، لان الآية الكريمة تتحدث عن تغييرين: احدهما تغيير اوضاع القوم و ابنيتهم العلوية و ظواهرهم: إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ و من الواضح ان المقصود من تغيير ما بالأنفس، تغيير ما بأنفس القوم، بحيث يكون المحتوى الداخلى كقوم و كأمة متغيرا، و الا فإن تغير الفرد الواحد أو الفردين أو الافراد، لا يشكّل الاساس لتغير ما بالقوم.

فالمحتوى النفسى و الداخلى للامة كأمة، لا لهذا الفرد أو لذلك الفرد، هو الذى يعتبر أساسا و قاعدة للتغييرات فى البناء العلوى للحركة التاريخية كلها.

و القرآن الكريم يؤمن بأن العمليتين يجب ان تسيرا جنبا إلى جنب، عملية صنع الانسان لمحتواه الداخلى، لفكره و إرادته، مع البناء الخارجى، و لا يمكن ان يفترض انفكاك البناء الخارجى عن البناء الداخلى، الا اذا بقى البناء الخارجى بناء مهزوزا متداعيا.

و لهذا سمى الاسلام عملية بناء المحتوى الداخلى اذا اتجهت اتجاها صالحا «بالجهاد الأكبر» تأكيدا منه على قاعدية المحتوى الداخلى. و سمى عملية البناء الخارجى إذا اتجهت اتجاها صالحا «الجهاد الأصغر»، و ربط الجهاد الأصغر بالجهاد الأكبر، و اعتبر أن الجهاد الأصغر اذا فصل عن الجهاد الأكبر فقد محتواه و مضمونه، و قدرته على التغيير الحقيقى على الساحة التاريخية و الاجتماعية.

---

(۱) سورة الرعد: الآية/ ۱۱.

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۱۰۷

و من هنا نجد القرآن الكريم، يعرض لحالة من حالات انفصال عملية البناء الخارجى عن عملية البناء الداخلى، قال سبحانه:
وَ مِنَ النّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِى الْحَياةِ الدُّنْيا وَ يُشْهِدُ اللّهَ عَلى ما فِى قَلْبِهِ وَ هُوَ أَلَدُّ الْخِصامِ. وَ إِذا تَوَلّى سَعى فِى الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيها وَ يُهْلِكَ الْحَرْثَ وَ النَّسْلَ وَ اللّهُ لا يُحِبُّ الْفَسادَ «١» و ما هو حى به هذه الآية الكريمة أن الإنسان اذا لم ينفذ بعملية التغيير إلى قلبه و اعماق روحه، و لم يبن نفسه بناء صالحا لا يمكنه أبدا أن يطرح الكلمات الصالحة، لأن الكلمات الصالحة إنما يمكن أن تتحول إلى بناء صالح فى المجتمع، إذا نبعت عن قلب يعمر بتلك القيم التى تدل عليها تلك الكلمات، و إلا فتبقى الكلمات مجرد الفاظ جوفاء دون أن يكون لها مضمون و محتوى.

فمسألة القلب هى التى تعطى للكلمات معناها، و لعملية البناء الخارجى أهدافها و مسارها.

الى هنا عرفنا أن الأساس و القاعدة فى حركة التاريخ، هو المحتوى الداخلى للانسان، و هنا نتساءل:

محورية المثل الاعلى

ما هى نقطة البدء فى بناء هذا المحتوى الداخلى للانسان؟ و ما هو المحور الذى يستقطب عملية بناء المحتوى الداخلى للإنسانية؟

المحور الذى يستقطب عملية البناء الداخلى للإنسانية هو المثل الاعلى.

لقد عرفنا فيما سبق، ان المحتوى الداخلى للانسان يجسد الغايات التى تحرك التاريخ، من خلال وجودات ذهنية تمتزج فيها الارادة بالتفكير. و هذه الغايات جميعا تنبثق عن وجهة نظر رئيسية إلى مثل اعلى للانسان فى حياته، هو الذى يحدد الغايات التفصيلية، و ينبثق عنه هذا الهدف الجزئى و ذلك الهدف

---

(١) سورة البقرة الآية/ ٢٠٥.

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ١٠٨

الجزئى، فالغايات بنفسها محركات للتاريخ، و هى بدورها نتاج لقاعدة اعمق منها فى المحتوى الداخلى للانسان، و هو المثل الأعلى الذى تتمحور فيه كل تلك الغايات، و تعود اليه كل تلك الاهداف.

فبقدر ما يكون المثل الأعلى للجماعة البشرية صالحا و عاليا و ممتدا، تكون الغايات صالحة و ممتدة، و بقدر ما يكون هذا المثل الأعلى محدودا أو منخفضا، تكون الغايات المنبثقة عنه محدودة و منخفضة ايضا.

و هذا المثل الأعلى يرتبط و يتحدّد من قبل كل جماعة بشرية، على اساس وجهة نظرها العامة نحو الكون و الحياة، و كلما كانت الطاقة الروحية و الرؤية الفكرية للجماعة البشرية تتناسب مع ذلك المثل الأعلى و مع وجهة نظرها إلى الحياة و الكون كلما تحققت ارادتها للسير فى طريق هذا المثل مع ما يتخلله من منعطفات، و ما ينتصب على جانبيه من علامات.

و كما ان الحركة التاريخية تتميّز عن أى حركة أخرى فى الكون، بانها حركة غائية هادفة، كذلك تتمايز الحركات التاريخية انفسها بعضها عن بعض بمثلها العليا. فلكل حركة تاريخية مثلها الأعلى، و هذا المثل الأعلى هو الذى يحدد الغايات و الاهداف، و هذه الاهداف و الغايات بدورها هى التى تحدد النشاطات و التحركات ضمن مسار ذلك المثل الأعلى.

و القرآن الكريم يطلق على المثل الأعلى فى جملة من الحالات اسم الإله، باعتبار ان المثل الأعلى هو القائد الآمر المطاع الموجّه، و هذه صفات يراها القرآن للإله، لأنه هو الذى يصنع مسار التاريخ. حتى ورد فى قوله سبحانه و تعالى:

أَ رَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ «١»، حيث عبر حتى عن الهوى بأنه إله، حينما يتصاعد هذا الهوى تصاعدا مصطنعا فيصبح هو المثل الأعلى، و هو الغاية القصوى لهذا الفرد أو لذاك. فالمثل العليا بحسب التعبير القرآنى و الدينى هى آلهة فى الحقيقة، لانها هى المعبودة حقا، و هى الآمرة و الناهية و المحركة حقا،

(۱) سورة الفرقان الآية/ ۴۳.

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۱۰۹

اقسام المثل العليا

اشارة

و هذه المثل العليا التى تتبناها الجماعات البشرية على ثلاثة اقسام:

القسم الأول

سقوط المثل الاعلى و سنن التاريخ

و قد علمنا التاريخ انه فى حالة من هذا القبيل توجد ثلاثة اجراءات،

(۱) سورة النجم الآية/ ۲۳.

(۲) سورة الحشر الآية/ ۱۴.

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۱۱۵

ثلاث بدائل يمكن ان تنطبق على حالة هذه الامة الشبح.

الإجراء التاريخى الأول: هو ان تتداعى هذه الامة أمام غزو عسكرى من الخارج، لان هذه الامة التى افرغت من محتواها، و تخلّت عن وجودها كأمة، يمكن أن تتداعى أمام غزو من الخارج، و هذا ما وقع بالفعل للمسلمين، فبعد أن فقد المسلمون مثلهم الأعلى، و فقدوا ولاءهم لهذا المثل الأعلى سقطت حضارتهم بأيدى التتار.

الإجراء التاريخى الثانى: هو الذوبان و الانصهار فى مثل أعلى اجنبى مستورد من الخارج لكى تعطيه ولاءها، و تمنحه قيادتها.

الإجراء التاريخى الثالث: أن ينشأ فى أعماق هذه الأمة، شعور بضرورة إعادة المثل الأعلى من جديد بمستوى العصر الذى تعيشه تلك الأمة إلى مركزه ليؤدى دوره الريادى من جديد.

هذان الاجراءان، الإجراء الثانى و الإجراء الثالث، وقفت الأمة الاسلامية امامهما على مفترق طريقين حينما دخلت عصر الاستعمار، كان هناك طريق يدعوها إلى الانصهار فى مثل أعلى من الخارج، هذا الطريق الذى طبقه جملة من الحكام فى بلاد المسلمين: «رضا خان» فى ايران، و «أتاتورك» فى تركيا، حاول هؤلاء ان يجسدوا المثل الأعلى للانسان الاوروبى المنتصر، و يطبقوا هذا المثل الأعلى و يكسبوا ولاء المسلمين انفسهم له، بعد أن اضاعوا مثلهم الأعلى الأصيل. بينما اطلق رواد الفكر الاسلامى فى بدايات عصر الاستعمار و فى اواخر الفترة التى سبقت عصر الاستعمار، جهودهم فى سبيل الاجراء الثالث، فى سبيل إعادة الحياة إلى الاسلام من جديد، و تقديمه بلغة العصر و بمستوى حاجات المسلمين.

الامة تتحول إلى شبح فتواجه أحد هذه الاجراءات الثلاثة.

القسم الثانى:

كل ما تقدم، كان يدور حول القسم الأول من المثل العليا التى يمكن ان

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۱۱۶

تتبناها الجماعات البشرية، و هو المثل الأعلى الهابط الذى يؤدى بالأمة إلى الجمود و التقوقع ثم الانهيار.

و الآن، ننتقل إلى الحديث عن القسم الثانى.

و نحن إذا رجعنا خطوة إلى الوراء- هذا ما سوف اشرح معناه بعد لحظات- فاننا سوف نواجه النوع الثانى من الآلهة، من المثل العليا. هذا النوع الثانى يعبر عن كل مثل أعلى للامة يكون مشتقا من طموحها و تطلعها إلى المستقبل. ليس هذا المثل تعبيرا تكراريا عن الواقع، بل هو تطلع إلى المستقبل، تحفز نحو الابداع و التطوير، و لكنّ هذا المثل منتزع عن خطوة واحدة من المستقبل، أى ان هذا الطموح الذى منه انتزعت الامة مثلها، كان طموحا محدودا مقيدا لم يستطيع ان يتجاوز المسافات الطويلة، و انما استطاع ان يكوّن رؤية مستقبلية محدودة، و هذه الرؤية المستقبلية المحدودة انتزع منها مثله الأعلى.

و فى هذا المثل الأعلى جانب موضوعى صحيح، و لكنه يحتوى على امكانيات خطر كبير، أما الجانب الموضوعى الصحيح، فهو ان الانسان عبر مسيرته الطويلة لا يمكنه ان يستوعب المطلق بل نفحة بسيطة منه، و هذه المحدودية فى دائرة الاستيعاب البشرى أمر صحيح و موضوعى، و لكن الخطر يكمن فى ان يحوّل الانسان هذه النفحة المحدودة فى ذاتها إلى مطلق ينتزع منه مثله الأعلى، و بهذا يحوّل اضمامة النور البسيطة إلى نور السموات و الأرض!؟

لأن الذهن البشرى محدود.

و من هنا، كان لا بد لهذا المثل الأعلى- باعتبار محدوديته- من أن يصل إلى حدوده القصوى، و حينئذ سوف يتحول هذا المثل نفسه إلى قيد للمسيرة، و عائق عن التطور، و مجمّد لحركة الانسان لانه اصبح مثلا، أصبح آلها، أصبح دينا؛ أصبح واقعا قائما، و حينئذ سوف يكون بنفسه عقبة أمام استمرار زحف الانسان نحو كماله الحقيقى.

و هذا المثل الذى يعمم خطأ. عند ما يحوّل من محدود إلى مطلق، خطأ

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۱۱۷

التعميم فيه، تارة بأن يكون تعميما افقيا خاطئا، و أخرى تعميما زمنيا خاطئا.

التعميم الافقى الخاطئ:

ان ينتزع الانسان من تصوره المستقبلى مثلا، و يعتبر ان هذا المثل يضم كل قيم الانسان التى يجاهد من اجلها، و يناضل فى سبيلها. بينما هذا المثل على الرغم من صحته، لا يمثل الا جزءا من هذه القيم. فهذا التعميم تعميم افقى خاطئ.

و كمثال على ذلك، نأخذ الانسان الاوروبى الحديث فى بدايات عصر النهضة، حيث جعل الحرية مثلا أعلى، لانه رأى ان الانسان الغربى كان محطّما و مقيّدا، كانت على يديه الاغلال فى كل ساحات الحياة، كان مقيدا فى عقائده العلمية و الدينية بحكم الكنيسة و تعنتها، كان مقيدا فى قوته و رزقه بأنظمة الاقطاع، كان مقيدا اينما يسير، اراد الانسان الاوروبى الرائد لعصر النهضة ان يحرر هذا الانسان من هذه القيود، من قيود الكنيسة، من قيود الاقطاع، اراد ان يجعل من الانسان كائنا مختارا، اذا اراد ان يفعل فعل، يفكر بعقله لا بعقل غيره، و يتصور و يتأمل بذاته، و لا يستمد هذا التصور كصيغ ناجزة من الآخرين.

و هذا شيء صحيح، الا ان الشيء الخاطئ فى ذلك. هو التعميم الافقى، فان هذه الحرية بمعنى كسر القيود عن هذا الانسان، قيمة من القيم، و لكن هذا وحده لا يصنع الانسان، انت لا تستطيع ان تصنع الانسان بان تكسر عنه القيود و تقول له افعل ما شئت، لا يوجد انسان و لا كائن، لا يوجد اقطاعى و لا قسيس و لا سلطان و لا طاغوت، يضطرك إلى موقف أو يفرض عليك موقفا، هذا وحده لا يكفى، فان كسر القيود انما يشكل الاطار للتنمية البشرية الصالحة، و لكنه يحتاج إلى مضمون و إلى محتوى، المحتوى و المضمون هو الذى فات الانسان الاوروبى، الانسان الاوروبى جعل الحرية هدفا و هذا صحيح، و لكنه صيّر من هذا الهدف مثلا أعلى، بينما هذا

الهدف

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۱۱۸

ليس الا اطارا، و اذا جرد هـذا الاطار عن محتواه، فوسف يؤدى إلى الويل و الدمار، إلى الويل الذى تواجهه الحضارة الغربية اليوم التى صنعت للبشرية كل وسائل الدمار.

التعميم الزمنى الخاطئ:

اشارة

و اما التعميم الزمنى ايضا، كـذلك على مر التاريخ توجد خطوات ناجحة تاريخيا، و لكنها لا يجوز ان تحوّل من حدودها كخطوة إلى مطلق، إلى مثل أعلى، يجب ان تكون ممارسة تلك الخطوة ضمن المثل الأعلى، لا ان تحول هذه الخطوة إلى مثل أعلى.

حينمـا اجتمع فى التاريـخ مجموعـة من الاسـر فشـكلوا القبيلـة، حينمـا اجتمعت مجموعـة من القبائـل فشـكلت عشـيرة، حينما اجتمعت مجموعة من العشائر فشـكلت أمة، هذه الخطوات صـحيحة فى تقدم البشرية و توحيدها، و لكن كل خطوة من هذه لا يجوز ان تتحول إلى مثل أعلى، لا يجوز أن تتحول إلى مطلق، لا يجوز ان تكون العشيرة هى المطلق الذى يحارب من أجله هذا الانسان، و إنما المطلق الـذى يحارب من أجله الانسان يبقى هو ذاك المطلق الحقيقى، يبقى هو اللّه سـبحانه و تعالى، الخطوة تبقى كأسـلوب، و لكن المطلق يبقى هو اللّه، هذا التعميم الزمنى أيضا هو شكل من التعميم الخاطئ، حينما يحول هذا المثل المنتزع من خطوة محدودة عبر الزمن إلى مثل أعلى.

و حال هـذا الانسان الـذى يحول هـذه الرؤية المحدودة من عمر الزمن إلى مطلق، حال الانسان الذى يتطلع إلى الافق فلا تساعده عينه إلّا على النظر إلى مسافـة محـدودة، فيخيل له بأن الـدنيا تنتهى عنـد الافق الذى يراه. الا ان هذا فى الحقيقة ناشـئ من عجز عينه عن ان يتابع المسافة الارضية الطويلة الامد.

كـذلك هنا، هذا الانسان الذى يقف على طريق التاريخ الطويل، على طريق المسـيرة البشـرية، بحكم محدودية الذهن البشـرى، له افق كذلك الافق

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۱۱۹

الجغرافى، و لكن هـذا الافق يجب ان يتعامل معه كافق، لا كمطلق، كما اننا نحن على الصـعيد الجغرافى لا نتعامل مع هـذا الافق الـذى نراه على بعـد عشـرين مترا أو مـائتى متر أنه نهايـة الارض، و إنمـا نتعامـل معه على أنه أفق، كـذلك ايضـا هنا، يجب ان يتعامل هـذا الانسان معه كافق فلا يحول هذا الافق التاريخى إلى مثل أعلى، و الا كان من قبيل من يسير نحو سراب.

انظروا إلى التمثيل الرائع فى قوله سبحانه و تعالى:

وَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمـالُهُمْ كَسَـرابٍ بِقِيعَـةٍ يَحْسَـبُهُ الظَّمْآنُ ماءً حَتَّى إِذا جاءَهُ لَمْ يَجِـدْهُ شَـيْئاً وَ وَجَـدَ اللَّهَ عِنْـدَهُ فَوَفَّاهُ حِسابَهُ وَ اللَّهُ سَـرِيعُ الْحِسابِ «۱».

و يعبّر القرآن عن كل هذه المثل المصطنعة من دون اللّه، بانها كبيت العنكبوت، يقول سبحانه و تعالى:

مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَـذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيـاءَ كَمَثَـلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَـذَتْ بَيْتاً وَ إِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ «۲» اذا قارنّا بين هـذين النوعين من المثـل العليا: المثل العليا من الواقع، و المثل العليا المشـتقة من طموح محـدود، يمكننا ان نلاحظ ان المثل العليا المشـتقة من الواقع، كثيرا ما تكون قـد مرت بمرحلة هذه المثل العليا التى تعبر عن طموح محدود، يعنى كثيرا ما تكون تلك المثل من النوع الاول امتـدادا للمثل من النوع الثانى، بأن يبـدأ هـذا المثل الأعلى مشـتقا من طموح، لكن حينما يتحقق هـذا الطموح المحدود، و

تصل البشرية إلى النقطة التى أثارت هذا المثل، يتحول هذا المثل إلى واقع محدود بحسب الخارج، حينئذ يصبح مثلا تكراريا.
من هنا قلنا فى ما سبق، إننا لو رجعنا خطوة إلى الوراء بالنسبة إلى

---

(۱) سورة النور الآية/ ۳۹.

(۲) سورة العنكبوت، الآية/ ۴۱.

آلهة النوع الاول و مثله، لوجدنا آلهة النوع الثانى، فالمسألة فى كثير من الأحيان تبدأ هكذا، تبدأ بمثل أعلى له طموح مشتق من طموح مستقبلى، ثم يتحول هذا المثل الأعلى إلى مثل تكرارى، ثم يتمزق هذا المثل التكرارى كما قلنا و تتحول الأمة إلى شبح أمة.

المراحل الأربعة

اشارة

فى هذه الفترة الزمنية، تمر الامة بمراحل فى الحقيقة، يمكننا تلخيصها فى أربعة مراحل:

المرحلة الأولى: فاعلية و تجديد

: هى مرحلة فاعلية هذا المثل بحكم انه قد بدأ مشتقا من طموح مستقبلى و من نظرة مستقبلية، فهذا المثل يكون له فى المرحلة الاولى فاعلية و عطاء و تجديد، بقدر ما يكون له من ارتباط بالمستقبل.
و لكن طبعا هذه الفاعلية و هذا العطاء و هذا التجديد، هو عطاء يسميه القرآن بالعاجل، مكاسب عاجلة، و ليست مكاسب على الخط الطويل. لان عمر هذا المثل قصير، و لأن عطاءه محدود، و لأنه سوف يتحول فى لحظة من اللحظات إلى قوة إبادة لكل ما اعطاه من مكاسب.
انظروا إلى قوله تعالى:
مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعاجِلَةَ عَجَّلْنا لَهُ فِيها ما نَشاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاها مَذْمُوماً مَدْحُوراً. وَ مَنْ أَرادَ الْآخِرَةَ وَ سَعى لَها سَعْيَها وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ كانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً كُلًّا نُمِدُّ هؤُلاءِ وَ هَؤُلاءِ مِنْ عَطاءِ رَبِّكَ وَ ما كانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً «۱».
اللّه سبحانه و تعالى خير محض، عطاء محض جود كله، فبقدر ما

---

(۱) سورة الإسراء الآية/ ۱۸- ۲۰.

تتبنى الامة مثلا قابلا للتحريك، بعد أن تشارك قادتها فى صنعه و تحريكه، فاللّه سبحانه ايضا يعطى، لكنه يعطى بقدر قابلية هذا المثل، يعطى شيئا عاجلا، و مكاسب عاجلة تعقبها جهنم فى الدنيا و الآخرة.

المرحلة الثانية: كبر و انقياد:

حينما يتجمد هذا المثل الأعلى، يستنفذ طاقته و قدرته على العطاء، حينئذ يتحول إلى تمثال و لا يبقى مثلا.
و القادة الذين كانوا يعطون و يوجهون على أساسه يتحولون إلى سادة و كبراء، لا ـ إلى قادة، و جمهور الامة يتحول إلى مطيعين و منقادين، لا إلى مشاركين فى الابداع و التطوير، و هذه المرحلة هى المرحلة التى عبر عنها القرآن الكريم بقوله:
وَ قالُوا رَبَّنا إِنَّا أَطَعْنا سادَتَنا وَ كُبراءَنا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا «۱».

المرحلة الثالثة: امتداد و استيعاب:

و نعنى بذلك أن هذه السلطة الحاكمة سوف تتحول إلى طبقة تتوارث مقاعدها عائليا أو طبقيا بشكل من اشكال الوراثة، و حينئذ تصبح هذه الطبقة هى الطبقة المترفة المنعمة الخالية من الاغراض الكبيرة، المشغولة بهمومها الصغيرة. و هذا ما عبر عنه القرآن الكريم بقوله:
وَ كَذلِكَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قالَ مُتْرَفُوها إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَ إِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ «۲». هؤلاء نتاج لآباء، لهم تاريخ و هم امتداد و استمرار لذاك التاريخ.

المرحلة الرابعة: تسلّط و إجرام:

ثم حينما تتفتت الامة و تتمزق، و تفقد ولاءها لذلك المثل التكرارى

---

(۱) سورة الأحزاب الآية/ ۶۷.

(۲) سورة الزخرف الآية/ ۲۳.

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۱۲۲

على ضوء ما قلناه، تدخل فى مرحلة رابعة و هى اخطر مراحلها، حيث يسيطر عليها مجرموها، يسيطر عليها اناس لا يرعون عهدا و لا ذمة. و هذا ما عبّر عنه القرآن الكريم فى قوله سبحانه:
وَ كَذلِكَ جَعَلْنا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكابِرَ مُجْرِمِيها لِيَمْكُرُوا فِيها وَ ما يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ «۱».
يسيطر هتلر و النازية مثلا فى جزء من أوروبا لكى يحطم كل ما فى أوروبا من خير و ابداع، لكى يقضى على كل مكاسب ذلك المثل الأعلى الذى رفعه الانسان الاوروبى الحديث، و الذى تحوّل بالتدريج إلى مثل تكرارى.

القسم الثالث:

اشارة

من المثل العليا، هو المثل الأعلى الحقيقى.
و هو اللّه سبحانه و تعالى. و لا بد من التنبيه هنا، على أن التناقض الذى كنا نواجهه فى القسمين السابقين من المثل العليا، و هو ذلك التناقض القائم بين الوجود الذهنى المحدود للانسان و لا محدودية المثل الأعلى، إن هذا التناقض يرتفع فى هذا القسم الثالث، و هو المثل الأعلى الحقيقى، ليحل محله التنسيق التام بين المحدود و اللامحدود. لما ذا؟ لان هذا المثل الأعلى ليس من نتاج الانسان، و لا

افرازا ذهنيا له، بل هو مثل أعلى له واقع عينى، هو موجود مطلق فى الخارج، له قدرته المطلقة و له علمه المطلق و له عدله المطلق. هذا الموجود العينى يكون مثلاـ أعلى لاـنه مطلق، لكن الانسان حينما يريـد ان يستلهم من هـذا النور، فهو لا يمسك الا بحزمـة منه، الا انه يميز بين ما يمسك به و بين مثله الأعلى، فما هو خارج حدود ذهنه هو المطلق، و المقيد ما هو وجود ذهنى لديه.

و من هنا حرص الاسلام على التميز دائما بين الوجود الذهنى و ما بين

---

(۱) سورة الأنعام الآية/ ۱۲۳.

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۱۲۳

اللّه سبحانه و تعالى الذى هو المثل الأعلى. فرّق حتى بين الاسم و المسمى، و أكد على انه لا يجوز عبادة الاسم، و انما العبادة تكون للمسمى لأنه هو المطلق، و لأن الاسم ليس الا واجهة ذهنية للّه سبحانه، و الواجهات الذهنية دائما محدودة و مرحلية. قال اللّه سبحانه و تعالى يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ إِنَّکَ کادِحٌ إِلی رَبِّکَ کَدْحاً فَمُلاقِيهِ «۱».

فإن هـذه الآيـة الكريمـة تضع اللّه سـبحانه هـدفا أعلى للإنسانية ككل، و كدح الانسانية ككل، نحو اللّه سبحانه، يعنى السير المستمر بالمعاناة و المجاهدة، لان هذا السير ليس سيرا اعتياديا، بل هو سير ارتقائى، هو تصاعد و تكامل، و هذا السير الذى يستبطن المعاناة باستمرار، يفترض حتما طريقا ممتدا بين السائر و بين ذلك الهدف، و هذا الطريق هو الذى تحدثت عنه الآيات الكريمة فى المواضع المتفرقة تحت اسم سبيل اللّه، و اسم الصراط، و اسم صراط اللّه، و هذه الآية الكريمة:

يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ إِنَّکَ کادِحٌ إِلی رَبِّکَ کَدْحاً فَمُلاقِيهِ.

تتحدث عن حقيقـة قائمة، عن واقع موضوعى ثابت، فهى ليست بصدد ان تدعو الناس إلى أن يسيروا فى طريق اللّه سبحانه و تعالى، ليست بصدد الطلب و التحريك كما هو الحال فى مقامات و سياقات قرآنية أخرى.

لغة الآيـة هى أن كـل سير و كـل تقـدم للانسان فى مسيرته التاريخيـة الطويلـة الأمـد، هو تقـدم و سير نحو اللّه سبحانه، حتى تلك الجماعات التى يسميها القرآن بالمشركين، التى تمسكت بالمثل المنخفضة و بالآلهة المصطنعة، و استطاعت ان تحقق لها خطوة على هذا الطريق الطويل، يسيرون هذه الخطوة نحو اللّه، هذا التقدم بقدر فاعليته و زخمه، هو اقتراب نحو اللّه،

---

(۱) سورة الانشقاق: الآية/ ۶.

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۱۲۴

لكن فرق بين تقدم مسئول و تقدم غير مسئول (على ما يأتى شرحه ان شاء اللّه)، حينما تتقدم الانسانية فى هذا المسار واعية على المثل الأعلى وعيا موضوعيا، يكون التقـدم تقـدما مسئولا، يكون عبادة بحسب لغـة الفقه، يكون لهم امتداد على الخط الطويل و انسجام مع الوضع العريض للكون، و أما حينما يكون التقـدم منفصـلا عن الوعى على ذلك المثل، فهو سير نحو اللّه على أى حال، و لكنه تقـدم غير مسئول على ما يأتى تفصيله.

اذن كل تقـدم هو تقـدم نحو اللّه، حتى اولئك الـذين ركضوا وراء سـراب، هؤلاء حينما يصـلون إلى هذا السـراب لا يجدون شـيئا، و يجدون اللّه سبحانه فيوفيهم حسابهم.

فاللّه سبحانه و تعالى هو نهاية هذا الطريق، و لكنه ليس نهاية جغرافية.

كربلاء مثلا نهايـة طريق ممتـد بين النجف و كربلاء، فهى نهايـة جغرافيـة، و معنى انها نهايـة جغرافية انها موجودة على آخر الطريق. و ليست موجودة على طول الطريق، فلو أن انسانا سار نحو كربلاء و وقف فى نصف الطريق لا يحصل على شىء من كربلاء، و لكن اللّه سبحـانه ليس نهايـة على نمـط النهايات الجغرافيـة، اللّه سـبحانه هو المطلق، الحقيقى العينى، و بحكم كونه هو المطلق، اذن هو موجود

على طول الطريق أيضا، ليس هناك فراغ منه، و ليس هناك انحسار عنه، و ليس هناك حد له، و لذا فإن من وصل إلى سرابه، فتوقف و اكتشف انه سراب، ما ذا يجد؟ وجد اللّه فوفّاه حسابه، لان المطلق موجود على طول الطريق، و بقدر التقدم فى الطريق يجد الانسان مثله الأعلى، يلقى اللّه سبحانه.

و بحكم أن اللّه سبحانه هو المطلق، اذن الطريق ايضا لا- ينتهى، و اقتراب الانسان على هذا الطريق نحو اللّه هو اقتراب مستمر و لكنه يبقى اقترابا نسبيا، لان المحدود لا يصل إلى المطلق، و المتناهى لا يمكن ان يصل إلى اللامتناهى، فالفسحة الممتدة بين الانسان و بين المثل الأعلى هنا، فسحة لا

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۱۲۵

متناهية، أى انه ترك له مجال الابداع و التطور التكاملى إلى اللانهاية، و هذا المثل الأعلى الحقيقى حينما تتبناه المسيرة الانسانية، و توفق بين وعيها البشرى و الواقع الكونى الذى يفترض هذا المثل الأعلى حقيقة قائمة كما افترضته الآية، فسوف يحدث تغيير كمى و كيفى على هذه المسيرة و تلك الحركة.

أما التغيير الكمى: فباعتبار ما أشرنا اليه، من أن الطريق حينما يكون طريقا إلى المثل الأعلى الحق، يكون طريقا غير متناه، أى أن مجال التطور و الإبداع و النمو قائم أبدا و دائما، و مفتوح للانسان باستمرار من دون توقف، هذا المثل الأعلى حينما يتبنّى، سوف تمسح من الطريق كل الآلهة المزورة، و كل الاصنام و الاقزام التى تقف عقبة بين الانسان و بين وصوله إلى اللّه سبحانه.

و من هنا كان دين التوحيد صراعا مستمرا مع مختلف اشكال الآلهة و المثل المنخفضة و التكرارية، التى حاولت ان تحدّ من كمية الحركة البشرية، و تكبّل الانسان بقيودها لتمنعه من ان يسمو و يحلّق، و تمرّغ وجهه بالوحل و التراب و تغله بأغلال العبيد.

و أما التغيير الكيفى: الذى يسبغه المثل الأعلى على هذه المسيرة فهو عبارة عن اعطاء الحل الموضوعى الوحيد للتناقض الانسانى بين قبضة التراب التى تتمثل فى الجسد و ما يحويه من غرائز و شهوات هابطة تجذبه إلى اسفل باستمرار و النفخة الالهية التى تتمثل فى الروح و ما تستبطنه من نزوع إلى السمو و التحليق نحو مصدرها و هو اللّه المثل الأعلى المطلق. و ذلك بإعطاء الانسان الشعور المعمق لديه بالمسئولية تجاه هذا المثل الأعلى، و لأول مرة فى تاريخ المثل المنخفضة التى حركت البشر على مر التاريخ.

لما ذا؟

لان هذا المثل الأعلى حقيقة و واقع عينى منفصل عن الانسان، و بهذا

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۱۲۶

يعطى للمسئولية شرطها المنطقى. فان المسئولية الحقيقية لا تقوم الا بين جهتين: مسئول، و مسئول لديه. اذا لم يكن هناك جهة أعلى من هذا الكائن المسئول، و اذا لم يكن هذا الكائن المسئول مؤمنا بأنه بين يدى جهة أعلى، لا يمكن ان يكون شعوره بالمسئولية شعورا موضوعيا و حقيقيا.

مثلا- تلك المثل المنخفضة على مرّ التاريخ، فى الحقيقة لم تكن كما رأينا الّا افرازا بشريا، و جزءا من كيان الانسان، و الانسان لا يمكن ان يستشعر بصورة موضوعية حقيقية، المسئولية اتجاه ما يصنعه هو: إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْماءٌ سَمَّيْتُمُوها «۱» نعم قد تصنع تلك المثل قوانين، و عادات، و أخلاقا، و لكنها كلها غطاء ظاهرى، و كلما وجد هذا الانسان مجالا للتحلل منها فسوف يتحلل.

بينما المثل الأعلى لدين التوحيد، باعتباره واقعا عينيا منفصلا عن الانسان و ليس نتاجا انسانيا، اذن سوف يتوصل للشعور بالمسئولية، و من هنا ندرك لما ذا كان الأنبياء على مر التاريخ أصلب الثوار على الساحة التاريخية و أنطفهم، لما ذا كانوا على الساحة التاريخية فوق كل مساومة، كل مهادنة، و كل تردد فى حربهم ضد كل المثل المنخفضة و الأصنام المصطنعة و من يتمحورون حولها حفاظا على مصالحهم و ترفهم و إرضاء لأنانياتهم الضيقة. لما ذا كانوا هكذا؟

لأن المثل الأعلى المنفصل عن أى نبى، هو الذى أعطاه نفحة موضوعية من الشعور بالمسئولية، و هذا الشعور بالمسئولية تجسد فى كل

كيانه، و مشاعره و أفكاره و عواطفه، فكان حقيقة، الشرط الجوهرى لإنجاح تلك المسيرة، و دفعها نحو هدفها المنشود.

و من هنا كان النبى معصوما على مر التاريخ.

---

(۱) سورة النجم الآية/ ۲۳.

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۱۲۷

و من هنـا أبرز القرآن الكريم سـنة من سـنن التاريـخ، و هى أن الأنبيـاء دائمـا كانوا يواجهون المترفين من مجتمعاتهم كقطب آخر فى المعارضـة مع هـذا النبى، لأـن هؤلاـء المسـتفيدين من هـذا المثال بعـد أن تحول إلى التمثـال، سوف يجعلون من هـذا التمثـال مبررا لوجودهم، و لـذا كان من الطبيعى أن نجد المترفين المستفيدين دائما، فى الخط المعارض للأنبياء، وَ كَذلِكَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قالَ مُتْرَفُوها إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَ إِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ «۱».

وَ ما أَرْسَلْنا فِى قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قالَ مُتْرَفُوها إِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ «۲» سَأَصْرِفُ عَنْ آياتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ إِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِها، وَ إِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا، وَ إِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ كانُوا عَنْها غافِلِينَ «۳». وَ قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِلِقاءِ الْآخِرَةِ وَ أَتْرَفْناهُمْ فِى الْحَياةِ الدُّنْيا ما هـذا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَ يَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ «۴».

اذن، دين التوحيد هو الذى يستأصل مصالح هؤلاء المترفين بالقضاء على آلهتهم، و على مثلهم التى تحولت إلى تماثيل، و يقطع صلة البشـرية بهذه المثل العليا المنخفضة، و لكن لا ليطأ برأسها فى التراب، و يحولها إلى كومة مادية ليس لها اشواق، و ليس لها طموحات إلى أعلى كما هو شأن الثوار الماديين، الـذين يستلهمون من الماديـة التأريخيـة و من الفهم المادى للتاريخ، ايضا يحاربون هذه الآلهة المصطنعة و يسمون الدين افيون الشعوب

---

(۱) سورة الزخرف: الآية/ ۲۳.

(۲) سورة سبأ: الآية/ ۳۴.

(۳) سورة الأعراف: الآية/ ۱۴۶.

(۴) سورة المؤمنون: الآية/ ۳۳.

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۱۲۸

فيحولون الانسان إلى حيوان يتمرغ فى عالم الضـرورات، بينما نحن نقطع صـلة الانسان بهـذه المثل المنخفضـة، لكى نشـده إلى المثل الأعلى، إلى اللّه سبحانه.

شروط و ركائز اساسية

و تبنّى المسـيرة البشـرية لهـذا المثل الأعلى الحق، الـذى يحـدث هـذه التغييرات الكيفية و الكمية على اتجاه تلك المسـيرة و حجمها، يتوقف على عدة أمور:

أولا- على رؤيـة واضـحة فكريا و ايـديولوجيا لهـذا المثل الأعلى، و هـذه الرؤيـة الواضـحة لهـذا المثل الاعلى هى التى تقـدمها عقيدة التوحيد على مرّ التاريخ، عقيدة التوحيد التى تنطوى على الايمان باللّه سبحانه و تعالى، التى توحد بين كل المثل و الطموحات، و كل التطلعات البشـرية، فى هـذا المثل الأعلى، الـذى هو علم كله، قـدرة كله، عـدل كله، رحمة كله، انتقام من الجبارين. هذا المثل الأعلى الـذى تتوحد فيه كل الطموحات و كل الغايات، تعطينا عقيدة التوحيد رؤية واضـحة له، تعلمنا على ان نتعامل مع صـفات اللّه و اخلاق

اللّه، لا بوصفها حقائق عينية منفصلة عنا كما يتعامل فلاسفة الاغريق، و انما نتعامل مع هذه الصفات و الاخلاق بوصفها رائدا عمليا، بوصفها هدفا لمسيرتنا العملية، بوصفها مؤشرات على الطريق الطويل للانسان فى كدحه نحو اللّه سبحانه.

ثانيا- لا بد من طاقة روحية مستمدة من هذا المثل الأعلى، لكى تكون هذه الطاقة الروحية رصيدا و وقودا مستمرا للارادة البشرية على مرّ التاريخ، هذا الوقود الروحى يتمثل فى عقيدة يوم القيامة، فى عقيدة الحشر و الامتداد، فهذه العقيدة تعلم الانسان ان هذه الساحة التاريخية الصغيرة التى يلعب عليها، مرتبطة ارتباطا مصيريا بساحات برزخية و بساحات حشرية فى عالم البرزخ و الحشر، و ان مصير الانسان على تلك الساحات العظيمة الهائلة،

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۱۲۹

مرتبط بدوره على هذه الساحة التاريخية. هذه العقيدة تعطى تلك الطاقة الروحية، ذلك الوقود الربانى الذى ينعش إرادة الانسان، و يحفظ له دائما قدرته على التجديد و الاستمرار.

ثالثا- ان هذا المثل الأعلى الذى تحدثنا عنه، يختلف عن المثل العليا الأخرى التكرارية و المنخفضة التى تحدثنا عنها سابقا، على اساس ان هذا المثل منفصل عن الانسان، ليس جزءا من الانسان و لا إفرازا له، بل هو واقع عينى قائم فى كل مكان، و هذا الانفصال، يفرض وجود صلة موضوعية بين الانسان و هذا المثل الأعلى. بينما المثل الأخرى السابقة، لما كانت افرازا بشريا، فلا حاجة إلى افتراض صلة موضوعية، نعم هناك طواغيت و فراعنة على مر التاريخ، نصبوا من انفسهم صلات موضوعية بين البشرية و بين آلهة الشمس، و آلهة الكواكب، و لكنها صلة موضوعية مزيفة، لان الإله هناك كان و هما، كان وجودا ذهنيا و افرازا انسانيا، اما هنا فالمثل الأعلى منفصل عن الانسان، و لهذا كان لا بد من صلة موضوعية تربط هذا الانسان بذلك المثل الأعلى.

و هذه الصلة الموضوعية تتجسد فى النبى، فالنبى هو ذلك الانسان الذى يركّب بين الشرط الاول و الشرط الثانى بأمر اللّه سبحانه و تعالى، بين رؤية ايديولوجية واضحة للمثل الأعلى، و طاقة روحية مستمدة من الايمان بيوم القيامة، يركّب بين هذين العنصرين، ثم يجسد بدور النبوة، الصلة بين المثل الأعلى و البشرية، ليحمل هذا المركّب إلى البشرية بشيرا و نذيرا.

رابعا- ان البشرية بعد ان تدخل مرحلة يسميها القرآن مرحلة الاختلاف على ما يأتى ان شاء اللّه شرحه- سوف لن يكفى مجىء البشير النذير، لان مرحلة الاختلاف تعنى مرحلة انتصاب تلك المثل المنخفضة أو التكرارية المزورة على الطريق، تحول دون البشرية و الارتباط باللّه سبحانه، و لذا كان لا بد للبشرية من ان تخوض معركة ضد الآلهة المصطنعة، ضد تلك الطواغيت

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۱۳۰

التى تنصب من نفسها قيّما على البشرية، و قاطع طريق بالنسبة للمسيرة التاريخية، و لا بد من قيادة تتبنى هذه المعركة، و هذه القيادة هى الامامة، فالامام هو القائد الذى يتولى هذه المعركة.

و دور الامامة يندمج مع دور النبوة فى مرحلة من النبوة يتحدث عنها القرآن و سوف نتحدث عنها ان شاء اللّه تعالى، و نقول بانها بدأت فى اكبر الظن مع نوح عليه الصلاة و السلام، و لكنه يمتد حتى بعد النبى، اذا ترك النبى الساحة و بعد لا تزال المعركة قائمة، و لا تزال الرسالة بحاجة إلى مواصلة هذه المعركة من اجل القضاء على تلك الآلهة.

على هذا الضوء، سوف نكوّن رؤية واضحة لما نسميه باصول الدين الخمسة، و التى سوف تقع فى موقعها الصحيح السليم من مسار الانسان، و اصول الدين الخمسة هى:

التوحيد: هو الذى يعطى الشرط الأول هو الذى يعطى الرؤية الواضحة فكريا و ايديولوجيا، هو الذى يجمع و يعبئ كل الطموحات و الغايات فى مثل اعلى واحد و هو اللّه سبحانه.

العدل: العدل هو جانب من التوحيد، العدل صفة من صفات اللّه سبحانه و تعالى، فحال العدل، حال العلم، و حال القدرة، لا يوجد ميزة عقائدية فى العدل فى مقابل بقية الصفات، و لكن الميزة هنا ميزة اجتماعية، ميزة القدوة، لان العدل هو الصفة التى تكون المسيرة

الاجتماعیهٔ بحاجهٔ الیها اکثر من أی صفهٔ أخری، و لذا أبرز العدل هنا کأصل ثانی من اصول الدین، باعتبار المدلول التربوی التوجیهی له بالنسبهٔ للمسیرهٔ البشریهٔ أثناء انطلاقتها نحو اللّه کمنارهٔ و مؤشر.

النبوهٔ: النبوهٔ هی التی توفر الصلهٔ الموضوعیهٔ بین الانسان و ما بین المثل الأعلی، فالمسیرهٔ البشریهٔ کما قلنا، حینما تبنت المثل الأعلی الحق

السنن التاریخیهٔ فی القرآن، ص: ۱۳۱

المنفصل عنها، کانت بحاجهٔ إلی صلهٔ موضوعیهٔ، یجسدها النبی (ص) علی مر التاریخ.

الامامهٔ: الامامهٔ هی فی الحقیقهٔ تلک القیادهٔ التی تندمج مع دور النبوهٔ، النبی امام ایضا، و لکن الامامهٔ لا تنتهی بانتهاء النبی، اذا کانت المعرکهٔ قائمهٔ، و اذا ما کانت الرسالهٔ لا تزال بحاجهٔ إلی قائد یواصل المعرکهٔ، اذن سوف یستمر هذا الجانب من دور النبی من خلال الامامهٔ.

الایمان بیوم القیامهٔ: هو الذی یوفر الشرط الثانی من الشروط الاربعهٔ التی تقدمت، هو الذی یعطی تلک الطاقهٔ الروحیهٔ، و ذلک الوقود الربانی الذی یجدد دائما إرادهٔ الانسان و قدرته، و یوفر له الشعور بالمسئولیهٔ و الضمانات الموضوعیهٔ.

اذن اصول الدین فی الحقیقهٔ، و بالتعبیر التحلیلی علی ضوء ما ذکرناه، هی کلها عناصر تساهم فی ترکیب هذا المثل الاعلی، و فی اعطاء تلک العلاقهٔ الاجتماعیهٔ، بصیغتها القرآنیهٔ الرباعیهٔ التی تحدثنا عنها فیما تقدم حیث قلنا بأن القرآن الکریم طرح العلاقهٔ الاجتماعیهٔ ذات اربعهٔ ابعاد لا ـ ذات ثلاثهٔ ابعاد، طرحها بصیغهٔ الاستخلاف، و شرحنا فی ما سبق صیغهٔ الاستخلاف، و قلنا بأن الاستخلاف یفترض اربعهٔ ابعاد، یفترض انسانا و إنسانا، و انسانا و طبیعهٔ، اللّه سبحانه و تعالی و هو المستخلف. هذه الصیغهٔ الرباعیهٔ للعلاقهٔ الاجتماعیهٔ هی التعبیر الآخر عن صیغهٔ تدمج اصول الدین الخمسهٔ فی مرکّب واحد، من اجل ان یسیر الانسان و یکدح فی طریقه الطویل نحو اللّه سبحانه.

و بما ذکرناه توضح دور الانسان فی المسیرهٔ التاریخیهٔ، توضح ان الانسان هو مرکز الثقل فی المسیرهٔ التاریخیهٔ، لا بجسمه الفیزیائی و انما بمحتواه الداخلی، و هذا المحتوی الداخلی توضح ایضا من خلال ما شرحناه، ان الاساس فی بنائه هو المثل الأعلی الذی یتبناه الإنسان، لأن

السنن التاریخیهٔ فی القرآن، ص: ۱۳۲

المثل الأعلی هو الذی تنبثق منه کل الغایات التفصیلیهٔ، و الغایات التفصیلیهٔ هی المحرکات التاریخیهٔ للنشاطات علی الساحهٔ التاریخیهٔ.

اذن، بناء المثل الأعلی و تبنّی المثل الأعلی، هو فی الحقیقهٔ الاساس فی بناء المحتوی الداخلی للانسان، و من هنا ظهر دور هذا البعد الرابع.

السنن التاریخیهٔ فی القرآن، ص: ۱۳۳

– ۷– القرآن و العلاقهٔ الاجتماعیهٔ

اشارهٔ

السنن التاریخیهٔ فی القرآن، ص: ۱۳۵

تقدم فی تحلیل عناصر المجتمع، ان المجتمع یتکون من ثلاثهٔ عناصر، و هی: الانسان و الطبیعهٔ و العلاقهٔ الاجتماعیهٔ، و قد تحدثنا عن الإنسان و دوره الاساسی فی الحلقهٔ التاریخیهٔ. و تحدثنا عن الطبیعهٔ و شأنها علی الساحهٔ التاریخیهٔ.

و بقی علینا ان نأخذ العنصر الثالث و هو: العلاقهٔ الاجتماعیهٔ لنحدد موقفنا من هذه العلاقهٔ علی ضوء ما انتهینا الیه من مواقف قرآنیهٔ

تجاه دور الإنسان و الطبيعة على الساحة التاريخية.

و قد تقدم ان العلاقة الاجتماعية تتضمن علاقتين مزدوجتين:

إحداهما: علاقة الانسان مع الطبيعة.

و الأخرى: علاقة الانسان مع اخيه الانسان.

هذان خطّان من العلاقة الاجتماعية، و هذان الخطان نؤمن بان كل واحد منهما مختلف و مستقل استقلالا نسبيا عن الآخر، مع شيء من التفاعل و التأثير المتبادل المحدود الذى سوف نشرحه بعد ذلك ان شاء اللّه، من حيث الاساس، تبعا للاختلاف النوعى فى طبيعة المشكلة التى يواجهها كل واحد من هذين الخطين، و نوع الحل الذى ينسجم مع طبيعة تلك المشكلة.

علاقة الانتاج

فالخط الاول يمثل علاقات الانسان مع الطبيعة، من خلال استثمارها و تطويعها، و انتاج حاجاته الحياتية منها. هذا الخط يواجه مشكلة التناقض بين

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۱۳۶

الانسان و الطبيعة، و هذا التناقض يعنى تمرد الطبيعة عن الاستجابة للحاجة الإنسانية من خلال التفاعل بينهما، و هذا التناقض له حل مستمد من قانون موضوعى يمثل سنة من سنن التاريخ الثابتة، هو قانون التأثير المتبادل بين الخبرة و الممارسة، ذلك لان الانسان كلما تضاءل جهله بالطبيعة، و كلما ازدادت خبرته بلغتها و بقوانينها، ازداد سيطرة عليها، و تمكّنا من تطويعها و تذليلها لحاجاته.

و حيث ان كل خبرة تتولد فى هذا الحقل عادة من الممارسة، و كل ممارسة تولّد بدورها خبرة، و لهذا كان قانون التأثير المتبادل بين الخبرة و الممارسة قانونا موضوعيا يكفل حل هذا التناقض بشكل مستمر، اذ يتضاءل جهل الانسان باستمرار، و تنمو معرفته باستمرار من خلال ممارسته للطبيعة، يكتسب خبرة جديدة، هذه الخبرة الجديدة تعطيه سيطرة على ميدان جديد من ميادين الطبيعة، فيمارس على الميدان الجديد، و هذه الممارسة بدورها ايضا تتحول إلى خبرة، و هكذا تنمو الخبرة الانسانية باستمرار، ما لم تقع كارثة كبرى طبيعية أو بشرية.

و هذا القانون بنموه و بتطبيقاته التاريخية، يعطى الحلول التدريجية لهذه المشكلة، فهى مشكلة محلولة تاريخيا و محلولة موضوعيا. و لعل فى الآية الكريمة:

وَ آتاكُمْ مِنْ كُلِّ ما سَأَلْتُمُوهُ، وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوها «۱».

إشارة إلى هذا الحل الموضوعى المستمد من قانون التأثير المتبادل بين الخبرة و الممارسة، لان السؤال فى الآية الكريمة وَ آتاكُمْ مِنْ كُلِّ ما سَأَلْتُمُوهُ لا يراد منه السؤال اللفظى الذى هو الدعاء، لأن الآية تتكلم عن الانسانية ككل، عمّن يؤمن باللّه و من لا يؤمن باللّه، من يدعو اللّه و من لا يدعو اللّه، كما ان

---

(۱) سورة إبراهيم الآية/ ۳۴.

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۱۳۷

الدعاء لا يتضمن حتما تحصيل الشيء المدعو به، نعم كل دعاء له استجابة، لكن ليس لكل دعاء تحقيق لما تعلق به، بينما هنا يقول وَ آتاكُمْ مِنْ كُلِّ ما سَأَلْتُمُوهُ فهذه استجابة فعلية بعطاء ما سئل عنه، فأكبر الظن أن هذا السؤال من الانسانية ككل، و على مرّ التاريخ، و عبر الماضى و الحاضر و المستقبل، يتمثل فى السؤال الفعلى و الطلب التكوينى، الذى يحقق باستمرار التطبيقات التاريخية لقانون التأثير المتبادل بين الخبرة و الممارسة.

هذه هی المشکلهٔ التی یواجهها الخط الاول من العلاقات، و هذا هو الحل الذی یوضع لهذه المشکلهٔ.

علاقهٔ التوزیع و غیره

و اما الخط الثانی من العلاقات، علاقات الانسان مع اخیه الانسان فی مجال توزیع الثروهٔ، أو فی سائر الحقول الاجتماعیهٔ، أو فی أوجه التفاعل الحضاری بین الانسان و اخیه الانسان، فهذا الخط یواجه مشکلهٔ اخری، لیست المشکلهٔ هنا هی التناقض بین الانسان و الطبیعهٔ، بل هی التناقض الاجتماعی بین الانسان و اخیه الانسان.

و هذا التناقض الاجتماعی بین الانسان و اخیه الانسان، یتخذ علی الساحهٔ الاجتماعیهٔ صیغا متعددهٔ و الوانا مختلفهٔ، و لکنه یظل فی حقیقته و جوهره أمرا ثابتا واحدا و روحا عامهٔ هی التناقض ما بین القوی و الضعیف، بین کائن فی مرکز القوهٔ و کائن فی مرکز الضعف، و هذا الکائن الذی فی مرکز القوهٔ اذا لم یکن قد حل تناقضه الخاص، جدله الانسانی من الداخل فسوف یفرز لا محالهٔ صیغهٔ من صیغ التناقض الاجتماعی. و مهما اختلفت الصیغهٔ فی مضمونها القانونی، و فی شکلها التشریعی، و فی لونها الحضاری، فهی بالآخرهٔ صیغهٔ من صیغ التناقض بین القوی و الضعیف، قد یکون هذا القوی فردا فرعونا، و قد یکون عصابهٔ، و قد یکون طبقهٔ، و قد یکون شعبا، و قد یکون امهٔ، و کل هذه الألوان من

السنن التاریخیهٔ فی القرآن، ص: ۱۳۸

التناقض تحتوی روحا واحدهٔ هی روح الصراع، بین القوی المستغل و بین الضعیف المستغل.

هذه اشکال متعددهٔ من التناقض الاجتماعی الذی یواجهه خط العلاقات بین الانسان و اخیه الانسان. و هذه الاشکال المتعددهٔ ذات الروح الواحدهٔ، کلها تنبع من معین واحد، و من تناقض رئیسی واحد، هو ذلک الجدل الانسانی القائم بین حفنهٔ التراب التی تشد الانسان إلی السفح، و بین اشواق الروح التی تحلّق به نحو القمهٔ، حیث المثل الاعلی الحقیقی، نحو اللّه.

و ما لم ینتصر أفضل النقیضین فی ذلک الجدل الانسانی، فسوف یظل هذا الانسان یفرز التناقض تلو التناقض، و الصیغهٔ بعد الصیغهٔ، حسب الشروط الموضوعیهٔ و مستوی الفکر و الثقافهٔ.

اذن النظرهٔ الاسلامیهٔ من زاویهٔ المشکلهٔ التی یواجهها خط العلاقات بین الانسان و اخیه الانسان، نظرهٔ واسعهٔ، منفتحهٔ، معمقهٔ، تستوعب کل أشکال التناقض علی مرّ التاریخ، و تنفذ إلی عمقها، و تکشف حقیقتها الواحدهٔ، و روحها المشترکهٔ، ثم تربط کل هذه التناقضات، بالتناقض الاعمق، بالجدل الانسانی.

و من هنا یؤمن الاسلام بأن الرسالهٔ الوحیدهٔ القادرهٔ علی حلّ هذه المشکلهٔ التی یواجهها خط علاقات الانسان مع الانسان، هی تلک الرسالهٔ التی تعمل علی مستویین فی وقت واحد، تعمل من أجل تصفیهٔ التناقضات الاجتماعیهٔ علی الساحهٔ، لکن فی نفس الوقت، و قبل ذلک و بعد ذلک، تعمل من أجل تصفیهٔ ذلک الجدل فی المحتوی الداخلی للانسان، من اجل تجفیف منبع تلک التناقضات الاجتماعیهٔ، و یؤمن الاسلام بأن ترک ذلک المعین من الجدل و التناقض علی حاله، و الاشتغال بتصفیهٔ التناقضات علی الساحهٔ الاجتماعیهٔ بصیغها التشریعیهٔ فقط، هو النصف المبتور من العملیهٔ، اذ سرعان ما یفرز

السنن التاریخیهٔ فی القرآن، ص: ۱۳۹

ذلک المعین صیغا أخری وفق هذه العملیهٔ التی سوف تستأصل بها الصیغ السابقهٔ.

فلا بد للرسالهٔ التی ترید أن تضع الحل الموضوعی للمشکلهٔ ان تعمل علی کلا المستویین.

أن تؤمن بجهادین: جهاد سمّاه الاسلام «بالجهاد الاکبر» و هو الجهاد لتصفیهٔ ذلک التناقض الرئیسی، لحل ذلک الجدل الداخلی. و جهاد آخر، فی وجه کل صیغ التناقض الاجتماعی، و کل الوان استئثار القوی للضعیف، من دون ان نحصر أنفسنا فی نطاق صیغهٔ معینهٔ من صیغ هذا الاستئثار، لان الاستئثار جوهره واحد مهما اختلفت صیغه.

هذه هى النظرة المنفتحة الواقعية التى اثبتت التجربة البشرية باستمرار، انطباقها على واقع الحياة، خلافا للنظرة الضيقة التى فسرت المادية بها التناقض. فان ماركس، على الرغم من ذكائه الفائق لم يستطع ان يتجاوز حدود النظرة التقليدية للإنسان الاوروبى، فالانسان الاوروبى دائما يرى العالم ينتهى حيث تنتهى الساحة الاوروبية أو الساحة الغربية بتعبير أعم، كما يعتقد اليهود بأن الانسانية هى كلها فى اطارهم: لَيْسَ عَلَيْنا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ «۱» أولئك ليسوا بشرا، ليسوا أناسا، أولئك أميون، و همج، كذلك الانسان الاوروبى، اعتاد أن يضع الدنيا كلها فى اطار ساحته الاوروبية، لم يتخلص هذا الرجل من تقاليد هذه النظرة الاوروبية، كما انه لم يتخلص من هيمنة العامل الطبقى الذى لعب دورا فى افكار المادية التاريخية.

و من هنا جاء لنا بتفسير محدود ضيق للتناقض الذى تواجهه الانسانية على هذا الخط، حيث اعتقد بأن مرد كل التناقضات على الساحة البشرية إلى تناقض واحد، هو التناقض الطبقى، التناقض بين طبقة تملك كل وسائل الانتاج أو معظم وسائل الانتاج، و طبقة لا تملك شيئا من وسائل الانتاج و انما تعمل من أجل مصالح الطبقة الاولى.

---

(۱) سورة آل عمران الآية/ ۷۵.

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۱۴۰

ثم هذه الثروة المنتجة التى جسدت عرق جبين هذا العامل المستغل، تستولى عليها الطبقة الاولى المالكة، و لا يعطى للطبقة الثانية منها الّا الحد الادنى، حدّ الكفاف الذى يضمن استمرار حياة هذه الطبقة، لكى تواصل خدمتها و ممارستها ضمن إطار الطبقة الاولى.

هذا هو التناقض الطبقى الذى اتخذه قاعدة و أساسا لكل ألوان التناقض الاخرى، و هذا التناقض يتخذ مدلوله الاجتماعى من خلال صراع مرير بين الطبقة المالكة و الطبقة العاملة، و هذا الصراع ينمو و يشتد كلما تطورت الآلة الصناعية و تعقدت، و ذلك لان الآلة كلما نمت، و كلما تطورت، أدت إلى تخفيض فى مستوى المعيشة، و هذا التخفيض فى مستوى المعيشة، يعطى فرصة للطبقة الرأسمالية المالكة فى ان تخفض أجر العامل، لانها لا تريد ان تعطى العامل اكثر مما يديم به حياته و نفسه.

اذن باستمرار تتطور الآلة، و باستمرار تنخفض كلفة المعيشة، و باستمرار يخفّض الرأسمالى أجرة العامل هذا من ناحية.

و من ناحية ثانية، ان تطور الآلة و تعقدها يقتضى امكانية التعويض عن العدد الكبير من العمال بالعدد القليل، لان دقة الآلة سوف يعوض عن الجزء الآخر من العمال. و هذا يجعل الطبقة الرأسمالية تطرد الفائض من العمال باستمرار، و هكذا يشتد الصراع بين الطبقتين و يحتدم التناقض حتى ينفجر فى ثورة، هذه الثورة تجسدها الطبقة العاملة و تقضى بها على التناقض الطبقى فى المجتمع و توحده فى طبقة واحدة، و هذه الطبقة الواحدة تمثل حينئذ كل أفراد المجتمع. و فى حالة من هذا القبيل، سوف تستأصل كل ألوان التناقض، لان أساس التناقض هو التناقض الطبقى، فاذا أزيل التناقض الطبقى، زالت كل التناقضات الاخرى الفرعية و الثانوية. حسب زعم المادية الجدلية.

هذا تلخيص سريع جدا لوجهة نظر هؤلاء الثوار الماديين تجاه التناقض الذى عالجناه.

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۱۴۱

الا ان هذه النظرة الضيقة، لا تنسجم فى الحقيقة مع الواقع، و لا تنطبق على تيار الاحداث فى التاريخ.

إذ ليس التناقض الطبقى وليد تطور الآلة، بل هو من صنع الانسان الاوروبى، فليست الآلة هى التى صنعت استغلال الرأسمالى للعامل، و ليست الآلة هى التى خلقت النظام الرأسمالى، و انما الانسان الاوروبى الذى وقعت هذه الآلة بيده، أفرز نظاما رأسماليا يجسد قيمه فى الحياة و تصوراته لها.

و ليس التناقض الطبقى هو الشكل الوحيد من اشكال التناقض، هناك صيغ كثيرة للتناقض على الساحة الاجتماعية، و كل هذه الصيغ من التناقض على الساحة الاجتماعية هى وليد تناقض رئيس، هو الجدل المخبوء فى داخل محتوى الانسان، الذى يفرز دائما و أبدا

صيغا متعددة من التناقض.

بين النظرية و التطبيق

تعالوا نلاحظ و نقارن بين هذه النظرة الضيقة و بين واقع التجربة البشرية المعاصرة، لنرى أى النظرتين أكثر انطباقا على العالم الذى نعيشه، و نرى ما ذا كنا نتوقع؟ و ما ذا كنا ننتظر؟ لو كان هذا التفسير للتناقض، صحيحا و واقعيا.

كنا ننتظر و نتوقع أن يزداد يوما بعد يوم، التناقض الطبقى و الصراع بين الطبقة الرأسمالية و الطبقة العاملة فى المجتمعات الاوروبية الصناعية، التى تطورت فيها الآلة تطورا كبيرا، كان من المفروض أن هذه المجتمعات، كانكلترا، و الولايات الامريكية المتحدة، و فرنسا، و ألمانيا، أن يشتد فيها التناقض الطبقى و الصراع يوما بعد يوم، و يتزلزل النظام الرأسمالى المستغل و يتداعى يوما بعد يوم، كنا نترقب ان يزداد البؤس و الحرمان فى جانب الطبقة العاملة، و يزداد الثراء على حساب هؤلاء العاملين فى طبقة الرأسماليين المستغلين من الامريكان و الانجليز و الفرنسيين و غيرهم، كنا نترقب حالة من هذا القبيل، كنا نترقب أن تتضاعف النقمة، أن يشتد ايمان العامل الاوروبى و العامل الامريكى بضرورة الثورة، و بأنها هى الطريق الوحيد لتصفية هذا التناقض

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۱۴۲

الطبقى، هذا ما كنا ننتظره لو صحت هذه الافكار عن تفسير التناقض.

لكن ما ذا وقع خارجا؟ ما وقع خارجا هو عكس ذلك تماما، نرى و بكل أسف، أن النظام الرأسمالى فى الدول الرأسمالية المستغلة يزداد ترسخا و يزداد تمحورا و عملقة يوما بعد يوم، لا تبدو عليه بوادر الانهيار السريع، تلك التمنيات الطيبة فى الثورة السريعة التى تمناها ثوارنا الماديون لانكلترا و للدول الاوروبية بحكم التطور الآلى و الصناعى فيها، تلك التمنيات الطيبة تحولت إلى سراب، بينما تحققت هذه النبوءات بالنسبة إلى بلاد لم تعش تطورا آليا، بل لم تعش تناقضا طبقيا بالمعنى الماركسى، لانها لم تكن قد دخلت الباب العريض الواسع للتطور الصناعى، من قبيل روسيا القيصرية و الصين.

من ناحية أخرى، هل ازداد العمال بؤسا و فقرا؟ هل ازدادوا استغلالا؟

لا بالعكس، العمال ازدادوا رخاء وسعة، اصبحوا مدلّلين من قبل الطبقة الرأسمالية المستغلة، العامل الامريكى يحصل على ما لا يطمع به انسان آخر يشتغل بكدّ يمينه و يقطف ثمار عمله فى المجتمعات الاشتراكية الاخرى.

هل ازدادت النقمة لدى الطبقة العاملة؟

العكس هو الصحيح، العمال، الهيئات التى تمثل العمال فى الدول الرأسمالية المستغلة تحولت بالتدريج إلى هيئات ذات طابع شبه ديمقراطى، تحولت إلى اشخاص لهم حالة الاسترخاء السياسى، تركوا هموم الثورة و منطقها، و أصبحوا يتصافحون يدا بيد مع تلك الأيدى المستغلة، مع أيدى الطبقة الرأسمالية، و أصبحوا يرفعون شعار تحقيق حقوق العمال عن طريق النقابات و عن طريق البرلمانات، و عن طريق الانتخابات.

هذه الحالة هى حالة الاسترخاء السياسى، كل هذا وقع فى هذه الفترة القصيرة من الزمن التى نحسها، فكيف وقع هذا؟

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۱۴۳

هل كان ماركس سيّئ الظن إلى هذه الدرجة بهؤلاء الرأسماليين المجرمين، و المستغلين، بحيث تنبأ بهذه النبوءات ثم ضاعت هذه النبوءات كلها فلم يتحقق شىء منها؟

أم هل أن هؤلاء الرأسماليين المستغلين، دخل فى أنفسهم الرعب من الماركسية و افكارها الثورية فحاولوا ان يتنازلوا عن جزء من مكاسبهم خوفا من أن يثور العامل عليهم؟

هل هذا صحيح؟

هل ان المليونير الامريكى يخالج ذهنه فعلا أى شبح من خوف من هذه الناحية؟ اشد الناس تفاؤلا بمصائر الثورة فى العالم لا يمكنه ان يفكر فى ان ثورة حقيقية على الظلم فى امريكا يمكن ان تحدث قبل مائة سنة من هذا التاريخ.

فكيف يمكن ان نفترض ان المليونير الامريكى، أصبح أمامه شبح الخوف و الرعب، و على اساس هذا الشبح تنازل عن جزء من مكاسبه؟

هل انه دخلت إلى قلوبهم التقوى فجأة و استنارت قلوبهم بنور الاسلام الذى أنار قلوب المسلمين الأوائل، الذين كانوا لا يعرفون حدا للمشاركة و المواساة، و الذين كانوا يشاطرون اخوانهم غنائمهم، و سرّاءهم و ضرّاءهم؟

هل تحول هؤلاء بين عشية و ضحاها إلى مسلمين؟

لا.. لم يتحقق شىء من ذلك، لا كارل ماركس كان سيّئ الظن بهؤلاء، بل كان ظنه منطبقا على هؤلاء انطباقا تاما. و لا أن هؤلاء أرعبهم شبح العامل فتنازلوا من أجل إسكاته، و لا ان قلوبهم خفقت بالتقوى، بل لم تعرف التقوى و لن تعرف التقوى لانها انغمست فى لذّات المال و فى الشهوات، لم يتحقق شىء من ذلك.

اذن ما ذا وقع و كيف نفسر هذا الذى وقع؟

هذا الذى وقع فى الحقيقة كان نتيجة تناقض آخر عاش مع التناقض

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۱۴۴

الطبقى منذ البداية، لكن ماركس و الثوار الذين ساروا على هذا الطريق، لم يستطيعوا أن يكتشفوا ذلك التناقض، و لهذا حصروا انفسهم فى التناقض الطبقى، فى التناقض بين المليونير الامريكى و العامل الامريكى، بين الغنى الانجليزى و العامل الإنجليزى، و لم يدخلوا فى الحساب التناقض الآخر الاكبر الذى أفرزه جدل الانسان الاوروبى، افرزه تناقض الانسان الاوروبى، فغطى على هذا التناقض الطبقى، بل جمّده، بل أوقفه إلى فترة طويلة من الزمن.

ما هو ذلك التناقض؟ نحن بنظرتنا المنفتحة يمكننا أن نبصر ذلك التناقض، لاننا لم نحصر انفسنا فى اطار التناقض الطبقى، بل قلنا إن جدل الانسان دائما يفرز أى شكل من أشكال التناقض الاجتماعى، ذلك التناقض الآخر، وجد فيه الرأسمالى المستغل الاوروبى و الامريكى، أن من طبيعة هذا التناقض، ان يتحالف مع العامل الذى يستغله لكى يشكل هو و العامل قطبا فى هذا التناقض، لم يعد التناقض تناقضا بين الغنى الاوروبى و العامل الاوروبى، بل ان هذين الوجودين الطبقيين تحالفا معا و كوّنا قطبا فى تناقض اكبر، بدأ تاريخيا منذ بدأ ذلك التناقض الذى تحدث عنه ماركس.

لكن ما هو القطب الآخر فى هذا التناقض؟ القطب الآخر فى هذا التناقض، هو أنا و أنت، هو الشعوب الفقيرة فى العالم، هو شعوب ما يسمى ب «العالم الثالث»، هذه الشعوب هى التى تمثل القطب الثانى فى هذا التناقض.

ان الانسان الاوروبى بكلا وجوديه الطبقيين، تحالف و تمحور، من أجل أن يمارس صراعه و استغلاله لهذه الشعوب الفقيرة، و قد انعكس هذا التناقض الاكبر اجتماعيا، من خلال صيغ الاستعمار المختلفة التى زخرت بها الساحة التاريخية، منذ خرج الانسان الاوروبى و الامريكى من دياره ليفتش عن كنوز الارض فى مختلف أرجاء العالم، و لينهب الاموال بلا حساب من مختلف البلاد و الشعوب الفقيرة، هذا التناقض غطى على التناقض الطبقى، بل جمد التناقض

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۱۴۵

الطبقى، لان جدل الانسان من وراء هذا التناقض، كان أقوى من جدل الانسان من وراء ذلك التناقض، و الثراء الهائل الذى تكدس فى أيدى الطبقة الرأسمالية فى الدول الرأسمالية، لم يكن كله، بل و لا معظمه، نتاج عرق جبين العامل الاوروبى و الامريكى، و انما كان نتاج غنائم حرب و غارات على هذه البلاد الفقيرة، قام بها الانسان الأبيض الأوروبى. هذا النعيم الذى تغرق فيه تلك الدول ليس من عرق جبين العامل الاوروبى، ليس من نتاج التناقض الطبقى بين الرأسمالى و العامل، و انما هذا النعيم هو من نفط آسيا و امريكا

اللاتينية، هو من ألماس تنزانيا، هو من الحديد و الرصاص و النحاس و اليورانيوم فى مختلف بلاد إفريقيا، هو من قطن مصر، هو من تنباك لبنان، هو من خمر الجزائر، نعم من خمر الجزائر، لان الكافر المستعمر الذى استعمر الجزائر، حوّل أرضها كلها إلى بستان عنب، لكى يقطف هذا العنب و يحوله إلى خمر ليسكر به العمال، و ليشعر اولئك العمال بالنشوة و الخيلاء.

إذن، التناقض الذى جمّد ذلك التناقض و اوقفه، هو هذا التناقض الأكبر بين المحور الرأسمالى ككل بكلتا طبقتيه، و ما بين الشعوب الفقيرة فى العالم.

من خلال هذا التناقض، وجد الرأسمالى الاوروبى و الامريكى أن من مصلحته أن يقاسم العامل شيئا من هذه الغنائم التى نهبها من فقراء الارض و مستضعفيها.

و لهذا نرى أن العامل بدأت حياته تختلف عن نبوءات ماركس، ليس ذلك لاجل كرم طبيعى فى الرأسمالى الاوروبى و الامريكى، و ليس لتقوى، و انما هى غنيمة كبيرة، كان من المفروض أن يعطى جزءا منها لهذا العامل، و الجزء وحده يكفى لاجل تحقيق هذا الرفاه بالنسبة إلى هذا العامل الاوروبى و الامريكى.

اذن، الحقيقة التى يثبتها التاريخ دائما، هو ان التناقض لا يمكن حصره فى صيغة واحدة، التناقض له صيغ متعددة، و ذلك لان كل هذه الصيغ، تنبع

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۱۴۶

من منبع واحد و هو التناقض الرئيسى، الجدل الانسانى، و الجدل الانسانى لا تعوزه صيغة، اذا حلت صيغة وضع صيغة أخرى مكانها، ليس من الصحيح ان نطوق كل التناقضات فى التناقض الطبقى، فى التناقض بين من يملك و من لا يملك، فاذا حللنا هذا التناقض قلنا: بأن التناقضات كلها قد حلت.

عود على بدء

اشارة

لقد سبق و قلنا: إن خط علاقات الانسان مع الطبيعة مختلف مشكلة و قانونا عن خط علاقات الانسان مع أخيه الانسان، و ذكرنا ان كلّا من هذين الخطين مستقل استقلالا نسبيا عن الخط الآخر، لكن هذا الاستقلال النسبى، لا ينفى التفاعل و التأثير المتبادل إلى حد ما بينهما. فلكل منهما لون من التأثير الطردى أو العكسى على الخط الآخر.

و هذا التأثير المتبادل بين الخطين، يمكن ابرازه ضمن علاقتين قرآنيتين:

العلاقة الاولى:

تبرز مدى تأثير خط علاقات الانسان مع الطبيعة على خط علاقات الانسان مع أخيه الانسان.

و العلاقة القرآنية الثانية:

تبرز من الجانب الآخر، مدى تأثير علاقات الانسان مع أخيه الانسان، على علاقات الانسان مع الطبيعة.

أما العلاقة الاولى التى تبرز تأثير علاقات الانسان مع الطبيعة على الخط الآخر فمؤداها: هو أنه كلما نمت قدرة الانسان على الطبيعة، و اتسعت سيطرته عليها، و ازداد اغتناء بكنوزها، و وسائل انتاجها، تحققت بذلك امكانية اكبر فاكبر، للاستغلال على خط علاقات الانسان مع أخيه الانسان:

كَلَّا إِنَّ الْإِنْسانَ لَيَطْغى، أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى «۱».

هذه الآية الكريمة، تشير إلى هذه العلاقة، إلى ان الانسانية بقدر ما

---

(۱) سورة العلق الآية/ ۶.

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۱۴۷

تتمكن و تستقطب الطبيعة، و تتوصل إلى وسائل انتاج أقوى و أدوات توليد أوسع، تكون انعكاسات ذلك على حقل علاقات الانسان مع أخيه الانسان أكبر، فى شكل امكانيات و اغراءات، و فتح الشهية للاقوياء لكى يستثمروا أداة الانتاج فى سبيل استغلال الضعفاء.

تصوروا مجتمعا يعيش على الصيد باليد و الحجارة و الهراوة، ففى مثل هكذا مجتمع، لن يتمكن الاقوياء على الاغلب، من أن يمارسوا أدوارا خطيرة من الاستغلال الاجتماعى، لان مستوى الانتاج محدود، و القدرة محدودة، و كل انسان لا يكسب عادة بعرق جبينه الا قوت يومه، فلا توجد امكانية الاستغلال بشكله الاجتماعى الواسع، و ان كان من الممكن أن توجد ألوان اخرى من الاستغلال الفردى.

و لكن لاحظوا من الجانب الآخر مجتمعا متطورا، استطاع الانسان فيه أن يصنع الآلة البخارية و الآلة الكهربائية، و استطاع فيه أن يخضع الطبيعة لارادته، فى مثل هذا المجتمع، سوف تكون الآلة البخارية و الآلة الكهربائية المعقدة المتطورة الصنع، أداة امكانية على ساحة علاقات الانسان مع أخيه الانسان، تشكّل بحسب مصطلح الفلاسفة، ما بالقوة للاستغلال، و يبقى ان يخرج ما بالقوة إلى ما بالفعل، و ذلك على عهدة الانسان و دوره التاريخى على الساحة الاجتماعية، فالانسان هو الذى يصنع الاستغلال، و هو الذى يفرز النظام الرأسمالى المستغل حينما يجد الآلة البخارية و الكهربائية، و لكن الآلة البخارية و الكهربائية هى التى تعطيه امكانية هذا الاستغلال، و تهيئ له فرصة تفتح شهيته، توقظ مشاعره، تحرك جدله و تناقضه الداخلى من اجل أن يبرز صيغة تتناسب مع ما يوجد على الساحة من قوى الانتاج و وسائل التوريد.

و هذا هو الفرق بيننا و بين المادية التاريخية، فالمادية التاريخية اعتقدت بأن الآلة هى التى تصنع الاستغلال، و هى التى تصنع النظام المتناسب معها، و لكننا نحن لا نرى ان دور الآلة هو دور الصانع، و انما دور الآلة هو دور

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۱۴۸

الامكانية، دور توفير الفرصة و القابلية، و أما الصانع الذى يتصرف ايجابا و سلبا، أمانة و خيانة، صمودا و انهيارا، انما هو الانسان وفقا لمحتواه الداخلى، لمثله الاعلى، و مدى التحامه مع هذا المثل الاعلى.

و أما العلاقة القرآنية الثانية التى تمثل و تجسد تأثير علاقات الانسان مع الطبيعة، فمؤداها: هو أنه كلما جسدت علاقات الانسان مع أخيه الانسان العدالة، و كلما استطاعت أن تستوعب قيمها، و أن تبتعد عن أى لون من ألوان الظلم و الاستغلال من الانسان لأخيه الانسان، ازدهرت علاقات الانسان مع الطبيعة، و تفتحت الطبيعة عن كنوزها، و أعطت المخبوء من ثرواتها، و نزلت البركات من السماء، و تفجرت الأرض بالنعمة و الرخاء.

هذه العلاقة، هى التى شرحها القرآن الكريم فى نصوص عديدة قال سبحانه:

وَ أَنْ لَوِ اسْتَقامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْناهُمْ ماءً غَدَقاً «۱» وَ لَوْ أَنَّهُمْ أَقامُوا التَّوْراةَ وَ الْإِنْجِيلَ وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ «۲»، وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ، وَ لكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْناهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ «۳» و هذه العلاقة مؤداها أن علاقات الانسان مع الطبيعة تتناسب عكسيا مع ازدهار العدالة فى علاقات الانسان مع أخيه الانسان، فكلما ازدهرت العدالة فى علاقات الانسان مع أخيه الانسان أكثر فأكثر ازدهرت علاقات الانسان مع الطبيعة، و كلما انحسرت العدالة عن الخط الأول، انحسر الازدهار عن الخط الثانى، أى أن مجتمع العدل، هو الذى يضع الازدهار فى علاقات الانسان مع أخيه

---

(۱) سورة الجن الآية/ ۱۶.

(۲) سورة المائدة الآية/ ۶۶.

(۳) سورة الأعراف الآية/ ۹۶.

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۱۴۹

الطبيعة، و مجتمع الظلم، هو الذى يؤدى إلى انحسار تلك العلاقات، علاقات الانسان مع الطبيعة.

و هذه العلاقة ليست ذات محتوى غيبى فقط، نعم نحن نؤمن أيضا بمحتواها الغيبى، و لكن اضافة إلى محتواها الغيبى الربانى، تشكّل سنة من سنن التاريخ بحسب مفهوم القرآن الكريم، و ذلك لأن مجتمع الظلم، مجتمع الفراعنة على مرّ التاريخ مجتمع ممزق، مشتت، فالفرعونية على مرّ التاريخ، حينما تتحكم فى علاقات الانسان مع أخيه الانسان، تستهدف تمزيق طاقات المجتمع، و تشتيت فئاته، و بعثرة امكانياته، و من الواضح أن تشتيتا و بعثرة و تفتيتا و تجزئة من هذا القبيل، لا يمكن معها لأفراد المجتمع، أن يحشدوا قواهم الحقيقية و السيطرة على الطبيعة.

و هذا هو الفرق بين المثل العليا المنخفضة الفرعونية، و بين المثل الأعلى الحق، مثل التوحيد سبحانه، فان المثل الأعلى يوحد الجامعة البشرية و يلغى كل الفوارق و الحدود باعتبار شمولية هذا المثل الأعلى، فهو يستوعب كل الحدود و كل الفوارق، يهضم كل الاختلافات، و يصهر البشرية كلها فى وحدة متكافئة، لا يوجد ما يميز بعضها عن بعض، لا من دم، و لا من جنس، و لا من قومية، و لا من حدود جغرافية أو طبقية.

انظروا إلى المثل الأعلى الحق كيف يقول:

إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ «۱»، وَ إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ «۲».

هذا هو منطق شمولية المثل الأعلى التى لا تعترف بحد أو بحاجز فى داخل هذه الأسرة البشرية. و فى مقابل ذلك هنالك مجتمع المثل المنخفضة الذى يحكمه

---

(۱) سورة الأنبياء الآية/ ۹۲.

(۲) سورة المؤمنون الآية/ ۵۲.

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۱۵۰

الفراعنة و طواغيت الأرض. تعال لنرى كيف يصورهم القرآن الكريم:

إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الْأَرْضِ وَ جَعَلَ أَهْلَها شِيَعاً «۱».

الفرعونية على مرّ التاريخ، تبنى العلاقات بين الانسان و أخيه الانسان، على أساس الظلم و الاستغلال، فالفرعونية تجزىء المجتمع، و تبعثر امكانياته و طاقاته، و من هنا تهدر ما فى الانسان من قدرة على الابداع و النمو الطبيعى على ساحة علاقات الانسان مع الطبيعة، و عملية التجزئة الفرعونية تقسم المجتمع إلى فصائل و جماعات: الجماعة الأولى ظالمون مستضعفون، و فى نفس الوقت يوجد الظالمون الثانويون، أو بحسب تعبير أئمتنا عليهم الصلاة و السلام «اعوان الظلمة»، هؤلاء الظالمون المستضعفون يشكلون حماية لفرعون و للفرعونية و سندا فى المجتمع لبقائها و استمرار وجودها و اطارها. قال اللّه سبحانه و تعالى:

وَ لَوْ تَرى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْ لا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ «۲» هنا القرآن يتحدث عن الظالمين يقول:

إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ، لكن الظالمين صنفهم إلى قسمين: إلى من استضعف منهم و من استكبر منهم. اذن فالظالمون فيهم مستكبرون، و هم الذين يمثلون الفرعونية فى المجتمع، و فيهم مستضعفون.

طوائف المجتمع الفرعونى

فالطائفة الأولى:

اذن فى التجزئة الفرعونية لمجتمع الظلم، هم الظالمون المستضعفون، هؤلاء الذين يحشرون يوم القيامة فى زمرة الظالمين، ثم يقولون

---

(۱) سورة القصص الآية/ ۴.

(۲) سورة سبأ الآية/ ۳۱.

للمستكبرين من الظالمين لو لا أنتم لكنا مؤمنين، هذه هى الطائفة الأولى التى تشكل الحماية و السند للفرعونية.

الطائفة الثانية:

فى عملية التمزقة الفرعونية لمجتمع الظلم، ظالمون، يشكلون حاشية، و متملقون، اولئك الذين قد لا يمارسون ظلما بأيديهم بالفعل، و لكنهم دائما و أبدا على مستوى نزوات فرعون و شهواته، يسبقونه بالقول من أجل أن يصححوا مسلكه و مسيرته. قال اللّه سبحانه و تعالى:

وَ قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَ تَذَرُ مُوسى وَ قَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَ يَذَرَكَ وَ آلِهَتَكَ قالَ سَنُقَتِّلُ أَبْناءَهُمْ وَ نَسْتَحْيِي نِساءَهُمْ وَ إِنَّا فَوْقَهُمْ قاهِرُونَ «۱».

شكلوا دور الاثارة لفرعون، هؤلاء كانوا يعرفون انهم بهذا الكلام يضربون على الوتر الحساس فى قلب فرعون، فتسابقوا إلى هذا الكلام لكى يجعلوا فرعون يعبر عما فى نفسه، و يتخذ الموقف المنسجم مع مشاعره و عواطفه و فرعونيته.

الطائفة الثالثة:

فى عملية التجزئة الفرعونية لمجتمع الظلم، أولئك الذين عبر عنهم الإمام على عليه الصلاة و السلام «بالهمج الرعاع»، جماعة هم مجرد آلات مستسلمة، لا تحس بالظلم، و لا تدرك انها مظلومة فهى تتحرك تحرك التبعية و الطاعة دون تدبر، و دون وعى، بعد أن سلب فرعون منها تدبرها، و عقلها، و وعيها، هذه الفئة طبعا تفقد كل قدرة على الابداع البشرى فى مجال التعامل مع الطبيعة، لانها تحولت إلى آلات، و إذا وجد أن هناك ابداع فى هذه الفئة فإنما هو ابداع من يحرك هذه الآلات، قال اللّه سبحانه و تعالى:

وَ قالُوا رَبَّنا إِنَّا أَطَعْنا سادَتَنا وَ كُبَراءَنا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا «۲» لا يوجد فى كلام هؤلاء ما يشعر بأنهم كانوا يحسون بالظلم أو كانوا يحسون بأنهم مظلومون و إنما هو مجرد طاعة، مجرد تبعية، هؤلاء هم القسم

---

(۱) سورة الأعراف الآية/ ۱۲۷.

(۲) سورة الأحزاب الآية/ ۶۷.

الثالث فى تقسيم مولانا أمير المؤمنين عليه أفضل الصلاة و السلام حينما قال:

«الناس ثلاثة: عالم ربانى و متعلم على سبيل نجاة و همج رعاع ينعقون مع كل ناعق» و هذا القسم الثالث يشكل مشكلة بالنسبة إلى أى مجتمع صالح و بقدر ما يمكن للمجتمع الصالح أن يستأصل هذا القسم الثالث بتحويله إلى القسم الثانى، بتحويله إلى متعلم على سبيل

النجاة على حد تعبير الإمام، إلى تابع باحسان على حد تعبير القرآن، إلى مقلد بوعى و تبصر على حد تعبير الفقه، يمكن للمجتمع الصالح أن يستمر و أن يمتد. و لهذا كان من ضرورات المجتمع الصالح فى نظر الإمام عليه الصلاة و السلام، هو شجب هذا القسم الثالث، هؤلاء الهمج، الرعاع الذين ينعقون مع كل ناعق، ليس لهم عقل مستقل، و إرادة مستقلة. كان الإمام (ع) يرى أنه يجب تصفيته من المجتمع الصالح، و ذلك لا ـ بالقضاء عليه فرديا، بل بتحويله إلى القسم الثانى ضمن إحدى الصيغ الثلاث التى ذكرناها، لكى يستطيع المجتمع الصالح أن يواصل ابداعه، و لكى يستطيع كل أفراد المجتمع الصالح، أن يشكلوا مشاركة حقيقية فى مسيرة الإبداع.

و خلافا لذلك الفرعونية، فالفرعونية تحاول أن توسع من هذا القسم الثالث. و كلما توسعت هذه الفئة أكثر فأكثر قدمت المجتمع نحو الدمار خطوة بعد خطوة، لان هذه الفئة لا تستطيع بوجه من الوجوه، أن تدافع عن المجتمع إذا حلت كارثة فى الداخل، أو طرأت كارثة من الخارج، و لذا فهم كلما توسعوا فى المجتمع كما و كيفا ازداد خطر فنائه، و بهذا تموت المجتمعات موتا طبيعيا، فى مقابل الموت المخروم.

أما الطائفة الرابعة:

هم أولئك الذين يستنكرون الظلم فى أنفسهم، أولئك الذين لم يفقدوا لبهم أمام فرعون و الفرعونية، فهم يستنكرون الظلم لكنهم يهادنونه و يسكتون عنه، فيعيشون حالة التوتر و القلق فى أنفسهم.

و هذه الحالة، أبعد ما تكون عن حالة تسمح للانسان بالابداع و التجديد

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۱۵۳

و النمو على ساحة علاقات الانسان مع الطبيعة. هؤلاء يسميهم القرآن الكريم ظالِمِی أَنْفُسِهِمْ، قال اللّه سبحانه و تعالى:

إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظالِمِی أَنْفُسِهِمْ قالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِی الْأَرْضِ قالُوا أَ لَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ واسِعَةً فَتُهاجِرُوا فِيها «۱».

هؤلاء لم يظلموا الآخرين، ليسوا من الظالمين المستضعفين كالطائفة الأولى، و ليسوا من الحاشية المتملقين، و ليسوا أيضا من الهمج الرعاع الذين فقدوا لبهم، بل بالعكس، هم يشعرون بأنهم مستضعفون. قالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِی الْأَرْضِ و لكنهم كانوا عمليا مهادنين، و لهذا عبر عنهم القرآن بأنهم ظلموا أنفسهم، هذه الطائفة هل يترقب منها أن تساعد بابداع حقيقى فى مجال علاقات الانسان مع الطبيعة؟ طبعا كلا.

الطائفة الخامسة:

فى عملية التجزئة الفرعونية للمجتمع هى: الطائفة التى تتهرب من مسرح الحياة، و تبتعد عنه و ترهبن، و هذه الرهبانية موجودة فى كل مجتمعات الظلم على مرّ التاريخ، و هى تتخذ صيغتين:

الأولى: رهبانية جادة تريد أن تفر بنفسها لكى لا تتلوث بأوحال المجتمع، هذه الرهبانية الجادة التى عبر عنها القرآن الكريم بقوله:

وَ رَهْبانِيَّةً ابْتَدَعُوها «۲».

هذه الرهبانية يشجبها الاسلام لانها موقف سلبى تجاه مسئولية خلافة الانسان على الأرض.

الثانية: رهبانية مفتعلة، يترهب و يلبس مسوح الرهبان و لكنه ليس راهبا فى أعماق نفسه، و إنما يريد بذلك أن يخدر الناس و يشغلهم عن فرعون و ظلم فرعون، و يسطو عليهم نفسيا و روحيا.

---

(۱) سورة النساء الآية/ ۹۷.

(۲) سورة الحديد الآية/ ۲۷.

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۱۵۴

إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبارِ وَ الرُّهْبانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوالَ النَّاسِ بِالْباطِلِ وَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ «۱».

الجماعة السادسة:

و الاخيرة فى عملية التجزئة الفرعونية للمجتمع هم:

المستضعفون.

ففرعون حينما اتخذ من قومه شيعا، استضعف طائفة معينة منهم خصها بالاذلال و هدر الكرامة، لانها كانت هى الطائفة التى يتوسم أن تشكل اطارا للتحرك ضده و لهذا استضعفها بالذات:

وَ إِذْ نَجَّيْناكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذابِ يُذَبِّحُونَ أَبْناءَكُمْ وَ يَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ وَ فِي ذلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ «۲».

و قد علمنا القرآن الكريم ضمن سنة من سنن التاريخ أيضا، أن موقع أى طائفة فى التركيب الفرعونى لمجتمع الظلم، يتناسب عكسا مع موقعه بعد انحسار الظلم، و هذا معنى قوله سبحانه و تعالى:

وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَ نَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ «۳».

تلك الطائفة السادسة التى كانت هى منحدر التركيب، يريد اللّه سبحانه و تعالى أن يجعلهم أئمة و يجعلهم الوارثين.

و هذه علاقة أخرى و سنة تاريخية اخرى يأتى الحديث عنها ان شاء اللّه تعالى.

اذن فإلى هنا استخلصنا هذه الحقيقة و هى: أن المجتمع يتناسب مدى الظلم فيه تناسبا عكسيا مع ازدهار علاقات الانسان مع الطبيعة، و يتناسب مدى العدل فيه تناسبا طرديا مع ازدهار علاقات الانسان مع الطبيعة.

---

(۱) سورة التوبة الآية/ ۳۴.

(۲) سورة البقرة الآية/ ۴۹.

(۳) سورة القصص الآية/ ۵.

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۱۵۵

فمجتمع الفرعونية المجزأ المشتت، مهدور القابليات و الطاقات و الامكانيات، و من هنا تحبس السماء قطرها، و تمنع الأرض بركاتها.

و أما مجتمع العدل فهو على العكس تماما، هو مجتمع تتوحد فيه كل القابليات، و تتساوى فيه كل الفرص و الامكانيات، هذا المجتمع الذى تحدثنا الروايات عنه، من خلال ظهور الإمام المهدى عليه الصلاة و السلام، و تحدثنا عما تحتفل به الأرض و السماء فى ظل الإمام المهدى (ع) من بركات و خيرات، و ليس ذلك إلا لان العدالة دائما و أبدا تتناسب طردا مع ازدهار علاقات الانسان مع الطبيعة، هذه العلاقة الثانية بين الخطين.

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۱۵۷

- ۸- علاقة النظرية القرآنية بالتشريع الاسلامى

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۱۵۹

خرجنا مما سبق بنظرية تحليلية قرآنية كاملة لعناصر المجتمع، و لأدوار هذه العناصر، و للعلاقة القائمة بين الخطين المزدوجين فى العلاقة الاجتماعية، خط علاقات الانسان مع أخيه الانسان، و خط علاقات الانسان مع الطبيعة، و انتهينا على ضوء هذه النظرية القرآنية

الشاملهٔ، إلی أن هذین الخطین احدهما مستقل عن الآخر استقلالا نسبیا، و لکن کل واحد منهما له نحو تأثیر فی الآخر علی الرغم من ذلک الاستقلال النسبی.

و هذه النظریهٔ القرآنیهٔ فی تحلیل عناصر المجتمع، و فهم المجتمع فهما موضوعیا، تشکل أساسا للاتجاه العام فی التشریع الاسلامی، فان التشریع الاسلامی فی اتجاهاته العامهٔ و خطوطه العریضهٔ، یتأثر و یتفاعل مع وجههٔ النظر القرآنیهٔ الی المجتمع و عناصره، و أدوار هذه العناصر، و العلاقات المتبادلهٔ بین الخطین.

هذه النظریات التی انتهینا إلیها علی ضوء المجموعهٔ المذکورهٔ سابقا من النصوص القرآنیهٔ، هی فی الحقیقهٔ، الأساس النظری للاتجاه العام للتشریع الاسلامی، فان الاستقلال النسبی بین الخطین، خط علاقات الانسان مع أخیه الانسان، و خط علاقات الانسان مع الطبیعهٔ، یشکّل القاعدهٔ لعنصر الثبات فی الشریعهٔ الاسلامیهٔ و الأساس لتلک المنطقهٔ الثابتهٔ من التشریع، التی تحتوی علی الأحکام العامهٔ المنصوصهٔ ذات الطابع الدائم المستمر. بینما منطقهٔ التفاعل بین الخطین، بین خط علاقات الانسان مع الطبیعهٔ، و خط علاقات

السنن التاریخیهٔ فی القرآن، ص: ۱۶۰

الانسان مع أخیه الانسان، تشکّل فی الحقیقهٔ الأساس لما أسمیناه فی کتاب «اقتصادنا» بمنطقهٔ الفراغ، تشکل الأساس للعناصر المرنهٔ و المتحرکهٔ فی التشریع الاسلامی، و التی ترک للحاکم الاسلامی مهمهٔ ملئها وفقا لمؤشرات اسلامیهٔ عامهٔ أیضا.

و هذا بحث یحتاج إلی کلام أکثر من هذا، تفصیلا و اطنابا، من المفروض أن نستوعب هذا البحث ان شاء اللّه لکی نربط الجانب التشریعی من الاسلام بالجانب النظری التحلیلی من القرآن الکریم لعناصر المجتمع.

و بعد ذلک یبقی علینا بحث آخر فی نظریهٔ الاسلام عن أدوار التاریخ، عن أدوار الانسان علی الأرض، فان القرآن الکریم یقسم حیاهٔ الانسان علی الأرض إلی ثلاثهٔ أدوار، دور الحضانهٔ، و دور الوحدهٔ، و دور التشتت و الاختلاف.

و هذه الأدوار الثلاثهٔ، تحدث عنها القرآن الکریم، و بیّن لکل دور الحالات و الخصائص و الممیزات التی یتمیز بها.

و هذا أیضا بحث سوف نخرج منه بنظریهٔ شاملهٔ کاملهٔ لهذا الجانب من تاریخ الانسان، کل ذلک لا یمکن أن یسعه یوم واحد و بحث واحد، اذن فمن الأفضل أن نؤجل ذلک،

السنن التاریخیهٔ فی القرآن، ص: ۱۶۱

– ۹– نهایهٔ المطاف: حدیث الروح

السنن التاریخیهٔ فی القرآن، ص: ۱۶۳

و ننصرف الآن من منطقهٔ الفکر إلی منطقهٔ القلب، من منطقهٔ العقل إلی منطقهٔ الوجدان، أرید أن نعیش معا لحظات بقلوبنا و وجداننا لا بعقولنا فقط، نرید أن نعرض هذه القلوب علی القرآن الکریم بدلا عن أن نعرض أفکارنا و عقولنا، لمن ولاؤها؟ ما هو ذاک الحب الذی یسودها و یمحورها و یستقطبها؟ إن اللّه سبحانه و تعالی لا یجمع فی قلب واحد ولاءین، لا یجمع حبین مستقطبین.

إما حب اللّه و إما حب الدنیا، أما حب اللّه و حب الدنیا معا فلا یجتمعان فی قلب واحد، فلنمتحن قلوبنا، لنری هل تعیش حب اللّه سبحانه و تعالی، أو تعیش حب الدنیا، فان کانت تعیش حب اللّه زدنا ذلک تعمیقا و ترسیخا، و إن کانت «نعوذ باللّه» تعیش حب الدنیا، حاولنا أن نتخلص من هذا الداء الوبیل و المرض المهلک.

إن کل حب یستقطب قلب الانسان یتخذ احدی درجتین:

الدرجهٔ الأولی: أن یشکل هذا الحب محورا و قاعدهٔ لمشاعر و عواطف و آمال و طموحات هذا الانسان، قد ینصرف عنه فی قضاء حاجهٔ فی حدود خاصهٔ، و لکن سرعان ما یعود إلی القاعدهٔ لانها المرکز، و هی المحور، قد ینشغل بحدیث، قد ینشغل بکلام، قد ینشغل بعمل، بطعام، بشراب، بمواجههٔ، بعلاقات ثانویهٔ، بصداقات، لکن یبقی ذاک الحب هو المحور.

الدرجة الثانية: من الحب المحور، أن يستقطب هذا الحب كل وجدان

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۱۶۴

الانسان، بحيث لا يشغله شيء عنه على الاطلاق، و معنى أنه لا يشغله شيء عنه، انه سوف يرى محبوبه و قبلته و كعبته اينما توجه.

هذا التقسيم الثنائى ينطبق على حب اللّه و ينطبق على حب الدنيا.

الحب الشريف للّه المحور يتخذ هاتين الدرجتين، الدرجة الأولى يتخذها فى نفوس المؤمنين الصالحين الطاهرين، الذين نظفوا نفوسهم من أوساخ هذه الدنيا الدنية، هؤلاء يجعلون من حب اللّه محورا لكل عواطفهم و مشاعرهم و طموحاتهم و آمالهم، قد ينشغلون بوجبة طعام، بمتعة من المتع المباحة، بلقاء مع صديق، بتنزه فى شارع، و لكن يبقى هذا هو المحور الذى يرجعون إليه بمجرد أن ينتهى هذا الانشغال الطارئ، و أما الدرجة الثانية، فهى لدرجة التى يصل إليها أولياء اللّه من الأنبياء و الأئمة عليهم أفضل الصلاة و السلام، «على بن أبى طالب» الذى نحظى بشرف مجاورة قبره، هذا الرجل العظيم، كلكم تعرفون ما ذا قال، هو الذى قال «بأنى ما رأيت شيئا إلا و رأيت اللّه معه و قبله و بعده و فيه»، لأن حب اللّه فى هذا القلب العظيم، استقطب وجدانه إلى الدرجة التى منعه من أن يرى شيئا آخر غير اللّه، حتى حينما كان يرى الناس، كان يرى فيهم عبيد اللّه، حتى حينما كان يرى النعمة الموفورة كان يرى فيها نعمة اللّه سبحانه و تعالى، هذا المعنى الحرفى، هذا الربط باللّه دائما و أبدا يتجسد أمام عينه لان محبوبه الأوحد، و معشوقه الأكمل، قبلة آماله و طموحاته، لم يسمح له بشريك فى النظر، فلم يكن يرى إلا اللّه سبحانه.

و نفس التقسيم الثنائى يأتى فى حب الدنيا، الذى هو رأس كل خطيئة على تعبير رسول اللّه (ص)، حب الدنيا يتخذ درجتين:

الدرجة الأولى: أن يكون حب الدنيا محورا للانسان فى تصرفاته و سلوكه، يتحرك حينما تكون المصلحة الشخصية فى أن يتحرك، و يسكن حينما تكون المصلحة الشخصية فى أن يسكن، يتعبد حينما تكون المصلحة الشخصية فى أن يتعبد و هكذا، الدنيا تكون هى القاعدة، لكن أحيانا أيضا يمكن أن

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۱۶۵

يفلت من الدنيا، يشتغل اشغالا أخرى نظيفة، طاهرة، قد يصلى للّه، قد يصوم للّه، لكن سرعان ما يرجع مرة أخرى إلى ذلك المحور و ينشد إليه، فلتات يخرج بها من إطار ذلك الشيطان ثم يرجع إلى الشيطان مرة أخرى، هذه درجة أولى من هذا المرض الوبيل، مرض حب الدنيا.

الدرجة الثانية: منن هذا المرض الوبيل هى الدرجة المهلكة، حينما يعمى حب الدنيا هذا الانسان، يسد عليه كل منافذ الرؤية، يكون بالنسبة إلى الدنيا كما كان سيد الموحدين و أمير المؤمنين بالنسبة إلى اللّه سبحانه و تعالى، انه لم يكن يرى شيئا إلا و كان يرى اللّه معه و قبله و بعده، حب الدنيا فى الدرجة الثانية يصل إلى مستوى بحيث ان الانسان لا يرى شيئا إلا و يرى الدنيا فيها و قبلها و بعدها و معها، حتى الأعمال الصالحة تتحول عنده و بمنظاره إلى دنيا، تتحول عنده إلى متعة، إلى مصلحة شخصية حتى الصلاة، حتى الصيام، هذه الألوان كلها تتحول إلى دنيا لا يمكنه أن يرى شيئا إلا من خلال الدنيا، إلا من خلال مقدار ما يمكن لهذا العمل أن يعطيه من حفنة مال، أو من حقنة جاه، لا يمكن أن يستمر معه إلا بضعة أيام معدودة.

و كل من الدرجتين مهلكة، و الدرجة الثانية أشد هلكة من الدرجة الأولى، و لهذا قال رسول اللّه (ص): «حب الدنيا رأس كل خطيئة».

و قال الإمام الصادق (ع): «الدنيا كماء البحر كلما ازداد الانسان منه شربا ازداد عطشا».

لا- تقل: فلآخذ هذه الحفنة من الدنيا ثم أنصرف عنها، فلأحصل على هذه المرتبة من جاه الدنيا ثم أنصرف إلى اللّه، ليس الأمر كذلك، فان أى مقدار تحصل عليه من مال الدنيا، و مقاماتها، سوف يزداد بك العطش و النهم إلى المرتبة الأخرى، «الدنيا كماء البحر»، «الدنيا رأس كل خطيئة».

الرسول (ص) يقول: «من أصبح و أكبر همه الدنيا فليس له من اللّه شيء». هذا الكلام يعنى قطع الصلة مع اللّه، يعنى أن ولاءين لا يجتمعان فى قلب واحد.

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۱۶۶

«حب الدنيا رأس كل خطيئة»، لأن حب الدنيا هو الذى يفرغ الصلاة من معناها، و يفرغ الصيام من معناه، و يفرغ كل عبادة من معناها، ما ذا يبقى من معنى لهذه العبادات، إذا استولى حب الدنيا على قلب الانسان، أنا و أنتم نعرف أن أولئك الذين نذمهم على ما عملوا مع أمير المؤمنين، لم يتركوا صلاة، و لم يتركوا صياما، و لم يشربوا خمرا، على الأقل عدد كبير منهم لم يقوموا بشيء من هذا القبيل، و مع ذلك يمكن القول ما قيمة صلاة عبد الرحمن بن عوف، عبد الرحمن بن عوف كان صحابيا جليل القدر، كان من السابقين إلى الاسلام، كان ممن أسلم و الناس كفار و مشركون، تربى على يد رسول اللّه (ص)، عاش مع الوحى، مع القرآن، مع آيات اللّه تترى، لكن ما ذا دهاه؟ ما ذا دهاه حينما فتح اللّه على المسلمين بلاد كسرى و قيصر، هذا الرجل المسكين ملأ قلبه حب الدنيا، كان يصلى و يصوم، و لكن ملأ قلبه حب الدنيا حينما وقف فى خيار واحد بين عثمان و على (ع)، اما أن يكون عثمان خليفة المسلمين و اما أن يكون على خليفة المسلمين، و هو يعلم أنه لو بايع بالخلافة لعلى لأسعد المسلمين إلى أبد الدهر، و لكنه يعلم أيضا أنه حينما يعطيها إلى عثمان فقد فتح بذلك باب الفتن إلى آخر الدهر، يعلم بذلك، و قد سمع ذلك من عمر نفسه أيضا، و لكنه فى هذا الخيار غلب حب الدنيا على قلبه، ضرب على يد عثمان و ترك يد على مبسوطة تنتظر من يبايع. قد تقولون إن هذه معصية كترك الصلاة، لان رسول اللّه (ص) جعل عليا خليفة بعده بلا فصل، هذا صحيح، فتولى على بن أبى طالب أهم الواجبات، و لكن أفرضوا و فرض المحال ليس بمحال، لو أن رسول اللّه لم ينص على على بن أبى طالب. أ كان هذا الموقف من عبد الرحمن بن عوف مهضوما و صحيحا بمنطق حب اللّه و حب الدنيا، و منطق الحرص على الاسلام و المسلمين؟ طبعا لا.

فالمسألة هنا إذن ليست فقط مسألة نص، و إنما المسألة هنا مسألة حب الدنيا، مسألة خيانة الأمانة لأن حب الدنيا يعمى و يصم.

«حب الدنيا رأس كل خطيئة» و حب اللّه سبحانه أساس كل كمال،

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۱۶۷

فحب اللّه هو الذى يعطى للانسان الكمال، و العزة، و الشرف، و الاستقامة، و النظافة، و القدرة على مغالبة الضعف فى كل الحالات.

حب اللّه سبحانه هو الذى جعل أولئك السحرة، يتحولون إلى رواد على الطريق، فقالوا لفرعون:

فَاقْضِ ما أَنْتَ قاضٍ إِنَّما تَقْضِی هذِهِ الْحَیاةَ الدُّنْیا «۱» كيف قالوا هكذا؟ لان حب اللّه اشتعل فى قلوبهم فقالوا لفرعون بكل شجاعة و بطولة «فاقض ما انت قاض، انما تقضى هذه الحياة الدنيا».

حب اللّه هو الذى جعل عليا عليه الصلاة و السلام دائما يقف مواقف الشجاعة، هذه الشجاعة، ليست شجاعة السباع، و إنما هى شجاعة الإيمان و حب اللّه، لما ذا؟ لان هذه الشجاعة لم تكن فقط شجاعة البراز فى ميدان الحرب، بل كانت أحيانا شجاعة الرفض، أحيانا شجاعة الصبر، على بن أبى طالب ضرب المثل الأعلى فى شجاعة المبارزة فى ميدان الحرب، شد حزامه و هو ناهز الستين من عمره الشريف، و هجم على الخوارج وحده فقاتل أربعة آلاف إنسان، هذه قمة الشجاعة فى ميدان المبارزة لان حب اللّه اسكره! فلم يجعله يلتفت إلى أن هؤلاء أربعة آلاف و هو واحد! و ضرب قمة الشجاعة فى الصبر، حينما فرض عليه الإسلام أن يصبر عن حقه و هو فى قمة شبابه. الإسلام قال له اسكت، اصبر عن حقك حفاظا على بيضة الإسلام، ما دام هؤلاء يتحملون حفظ الشعائر الظاهرية للاسلام.

و كان قمة الشجاعة فى الرفض، و فى الإباء، حينما طرح عليه ذلك الرجل أن يبايعه على شروط تخالف كتاب اللّه و سنة رسوله بعد مقتل الخليفة الثانى.

إذن، فشجاعة البراز فى يوم البراز، و شجاعة الصبر فى يوم الصبر، و شجاعة الرفض فى يوم الرفض، خلقها فى قلب على حبه اللّه، لا اعتقاده

(۱) سورة طه الآية/ ۷۲.

بوجود اللّه، هذا الاعتقاد الذى يشاركه فيه فلاسفة الاغريق ايضا. ليس الاعتقاد و انما حب اللّه اضافة إلى الاعتقاد، هذا هو الذى صنع هذه المواقف.

و نحن أولى الناس بأن نطلّق الدنيا، اذا كان حب الدنيا خطيئة، فهو منا نحن الطلبة من اشد الخطايا.

نحن أولى من غيرنا بأن نكون على حذر من هذه الناحية، أولا: لاننا نصبنا أنفسنا أدلاء للناس على طريق الآخرة.

اذن كيف تقطع دنياك عن الآخرة؟ اذا كانت دنياك مقطوعة عن الآخرة فسوف تشد دنيا الناس إلى دنياك لا إلى آخرة ربك، سوف نتحول إلى قطاع طريق، و لكن أى طريق، الطريق إلى اللّه، هذا الطريق إلى اللّه نحن رواده، و نحن القائمون على الدلالة اليه، و على الاخذ بيد الناس فيه، فلو اننا أغلقنا باب هذا الطريق، و تحولنا عنه إلى طريق آخر، فسوف نكون حاجبا عن اللّه، و حاجبا عن اليوم الآخر. كل انسان يستولى حب الدنيا على قلبه يهلك هو، أما لطلبة، أما نحن اذا استولى حب الدنيا على قلوبنا، سوف نهلك و نهلك الآخرين، لاننا وضعنا أنفسنا فى موضع المسئولية، فى موضع ربط الناس باللّه سبحانه و تعالى و اللّه لا يعيش فى قلوبنا، اذن سوف لن نتمكن من أن نربط الناس باللّه.

نحن اولى الناس و احق الناس باجتناب هذه المهلكة، لاننا ندعى أننا ورثة الانبياء و ورثة الائمة و الاولياء، و اننا السائرون على طريق محمد (ص) و على و الحسن و الحسين عليهم الصلاة و السلام.

ألسنا نحاول أن نعيش شرف هذه النسبة، هذه النسبة تجعل موقفنا أدق من مواقف الآخرين، لاننا نحن حملة أقوال هؤلاء و افعال هؤلاء، أعرف الناس بأقوالهم، و اعرف الناس بأفعالهم، أ لم يقل رسول اللّه (ص):

«انا معاشر الانبياء لا نورث ذهبا و لا فضة و لا عقارا، انما نورث العلم

و الحكمة»؟ أ لم يقل على بن ابى طالب عليه الصلاة و السلام: «ان امارتكم هذه لا تساوى عندى شيئا الا أن أقيم حقا أو أدحض باطلا».

على بن أبى طالب كان يعمل للّه سبحانه، لم يكن يعمل لدنياه، لو كان على يعمل لدنياه لكان اشقى الناس و أتعس الناس، لان عليا حمل دمه على يده منذ صباه، يذب عن وجه رسول اللّه (ص) و عن رسالة اللّه، لم يتردد لحظة فى أن يقدم، لم يكن يحسب للموت حسابا، لم يكن يحسب للحياة حسابا، كان أطوع الناس لرسول اللّه فى حياة رسول اللّه (ص)، و كان أطوع الناس لرسول اللّه بعد رسول اللّه (ص)، كان اكثر الناس عملا فى سبيل الدين، و معاناة من أجل الاسلام.

لو جئنا إلى مقاييس الدنيا، ما ذا حصل عليه هذا الرجل العظيم؟ أ لم يقص هذا الرجل العظيم، أ لم يكن جليس بيته فترة من الزمن، أ لم يسبّ هذا الرجل العظيم ألف شهر على منابر المسلمين! التى اقيمت اعوادها بجهاده، بدمه، و تضحياته.

و لكنه على الرغم من ذلك حينما ضربه عبد الرحمن بن ملجم بالسيف على رأسه ما ذا قال هذا الامام العظيم؟ قال «لقد فزت و رب الكعبة» لو كان على يعمل لدنياه لقال و اللّه انى أتعس انسان لانى لم أحصل على شىء فى مقابل عمر كله جهاد، كله تضحية، و كله حب للّه، لكنه لم يقل ذلك، قال «لقد فزت و رب الكعبة» انها و اللّه الشهادة، لانه لم يكن يعمل لدنياه، كان يعمل لربه، و الآن لحظة اللقاء مع اللّه، هذه اللحظة هى اللحظة التى سوف يلتقى بها على مع اللّه سبحانه و تعالى فيوفيه حسابه و يعطيه أجره، يعوضه عما تحمل من شدائد، عما قاسى من مصائب، أ ليس هذا الامام هو مثلنا الاعلى، أ ليست حياة هذا الامام هى السنة، أ ليست السنة هى قول المعصوم و فعله و تقريره.

علينا أن نحذر من حب الدنيا، لانه لا دنيا عندنا لكى نحبها! ما ذا نحب؟

نحب الدنيا؟! نحن الطلبة! ما هى هذه الدنيا التى نحبها و نريد ان نغرق

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۱۷۰

انفسنا فيها و نترك رضوانا من اللّه أكبر، نترك ما لا عين رأت و لا أذن سمعت و لا اعترض على خيال بشر، ما هى هذه الدنيا؟ دنيانا هى مجموعة من الاوهام، كل دنيا و هم، لكن دنيانا اكثر و هما من دنيا الآخرين، ما ذا نحصل من الدنيا الا على قدر محدود جدا، لسنا نحن أولئك الذين تركع الدنيا بين أيدينا لكى نؤثر الدنيا على الآخرة، دنيا هارون الرشيد كانت عظيمة، نقيس انفسنا بهارون الرشيد، هارون الرشيد نسبّه ليلا نهارا لانه غرق فى حب الدنيا، لكن تعلمون أى دنيا غرق فيها هارون الرشيد، أى قصور مرتفعة عاش فيها هارون الرشيد، أى بذخ و ترف كان يحصل عليه هارون الرشيد، أى زعامة و سلطان امتد مع أرجاء الدنيا حصل عليه هارون الرشيد، هذه دنيا هارون الرشيد، نحن نقول بأننا أفضل و اورع و أتقى من هارون الرشيد، عجباه نحن عرضت علينا دنيا هارون الرشيد فرفضناها حتى نكون أورع من هارون الرشيد.

يا أولادى، يا إخوانى، يا أعزائى، يا أبناء على .. هل عرضت علينا دنيا هارون الرشيد، لا .. عرض علينا دنيا هزيلة، محدودة، ضئيلة، دنيا ما أسرع ما تتفتت، ما اسرع ما تزول، دنيا لا يستطيع الانسان أن يتمدد فيها كما كان يتمدد هارون الرشيد، هارون الرشيد يلتفت إلى السحابة يقول لها أينما تمطرين يأتينى خراجك، فى سبيل هذه الدنيا سجن موسى بن جعفر (ع)، هل جربنا أن هذه الدنيا تأتى بيدنا ثم لا نسجن موسى بن جعفر؟ طرحنا هذا السؤال على انفسنا، كل واحد منا يطرح هذا السؤال على نفسه، بينه و بين اللّه. ان هذه الدنيا، دنيا هارون الرشيد كلفته أن يسجن موسى بن جعفر، هل وضعت هذه الدنيا أمامنا لكى نفكر بأننا أتقى من هارون الرشيد، ما هى دنيانا؟ هى مسخ من الدنيا، هى أوهام من الدنيا، ليس فيها حقيقة الا حقيقة رضوان اللّه، كل طالب علم حاله حال على بن أبى طالب، اذا كان يعمل للدنيا فهو أتعس انسان، لان أبواب الدنيا مفتوحة لأى طالب اذا كان طالبا له قابلية و ذكاء، فاذا كان يعمل للدنيا فهو أتعس انسان، لانه سوف يخسر الدنيا

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۱۷۱

و الآخرة، لا دنيا الطلبة دنيا. و لا الآخرة يحصل عليها. فليكن همنا أن نعمل للآخرة، أن نعيش فى قلوبنا حب اللّه سبحانه بدلا عن حب الدنيا.

الائمة عليهم السلام علمونا بأن تذكّر الموت دائما يكون من العلاجات المفيدة لحب الدنيا، كل واحد منا يعتقد بأن كل من عليها فان، لكن القضية دائما و ابدا لا يجسدها بالنسبة إلى نفسه، من العلاجات المفيدة أن يجسدها بالنسبة إلى نفسه، دائما يتصور بأنه يمكن أن يموت بين لحظة و اخرى، كل واحد منا يوجد لديه أصدقاء ماتوا، و اخوان انتقلوا من هذه الدار إلى دار الأخرى، أبى لم يعش فى الحياة أكثر مما عشت حتى الآن، أخى لم يعش فى الحياة أكثر مما عشت حتى الآن، أنا الآن استوفيت هذا العمر، من المعقول جدا أن أموت فى السنن الذى مات فيه أبى و أخى. كل واحد منا لا بد و أن يكون له قدوة من هذا القبيل، لا بد و أن أحبابا له قد رحلوا، أعزة له قد انتقلوا لم يبق من طموحاتهم شىء، لم يبق من آمالهم شىء إن كانوا قد عملوا للآخرة فقد رحلوا إلى مقعد صدق عند مليك مقتدر، و إذا كانوا قد عملوا للدنيا فقد انتهى كل شىء بالنسبة اليهم.

هذه عبر، هذه العبر التى علمنا الائمة عليهم السلام ان نستحضرها دائما، تكسر فينا شره الحياة، ما هى هذه الحياة؛ لعلها أيام فقط، لعلها أشهر فقط، لعلها سنوات، لما ذا نعمل و نحرص دائما على اساس انها حياة طويلة، لعلنا لا ندافع الا عن عشرة ايام، الا عن شهر، الا عن شهرين لا ندرى عن ما ذا ندافع، لا ندرى اننا نحتمل هذا القدر من الخطايا، هذا القدر من الآثام، و هذا القدر من التقصير أمام اللّه سبحانه و أمام ديننا، نتحمله فى سبيل الدفاع عن ما ذا، عن عشرة أيام عن شهر، عن أشهر ... هذه بضاعة رخيصة.

نسأل اللّه سبحانه و تعالى ان يطهر قلوبنا و ينقى ارواحنا، و يملأها حبا له، و خشية منه، و تصديقا به، و عملا بكتابه.

و آخر دعوانا أن الحمد للّه رب العالمين.

السنن التاريخية فى القرآن، ص: ۱۷۳

الفهرس

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فى سَبيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علیّ بْنُ موسَی الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فی تلخيص بحار الأنوار، للعلّامة فيض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُيونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشَّيخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع " القائميّة "الثّقافيّ بأصبَهانَ – إيرانَ: الشهيد آية الله " الشمس آباذی – "رَحِمَهُ اللهُ – كان أحداً من جَهابذة هذه المدينة، الذی قدِ اشتهَرَ بشَغفِهِ بأهل بَيت النبیّ (صلواتُ اللهِ علَيهِم) و لاسيَّما بحضرة الإمام علیّ بن موسَی الرِّضا (عليه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرجَهُ الشَّريفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درايته، فی سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجريّة الشمسيّة (=۱۳۸۰ الهجريّة القمريّة)، مؤسَّسةً و طريقةً لم يَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَى و أحسَنِ مَوقِفٍ كلَّ يوم.

مركز " القائميّة "للتحرّی الحاسوبیّ – بأصبَهانَ، إيرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجريّة القمريّة) تحتَ عناية سماحة آية الله الحاجّ السيّد حسن الإمامیّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّيجی الحوزات العلميّة و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، فی مجالاتٍ شتّی: دينيّة، ثقافيّة و علميّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشیعة و تبسیط ثَقافة الثّقلَین (کتاب الله و اهل البیت علیهمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزیز دوافع الشَّباب و عموم الناس إلی التّحَرِّی الأدَقّ للمسائل الدّینیّة، تخلیف المطالب النّافعة – مکانَ البَلاتیثِ المبتذلة أو الرّدیئة – فی المحامیل (=الهواتف المنقولة) و الحواسیب (=الأجهزة الکمبیوتریّة)، تمهید أرضیّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافیّةٍ علی أساس معارف القرآن و أهل البیت –علیهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققین و الطّلّاب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِجِ العلوم الإسلامیّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهیل رفع الإبهام و الشّبُهات المنتشرة فی الجامعة، و...

- مِنها العَدالة الاجتماعیّة: التی یُمکِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحدیثة متصاعدةً، علی أنّه یُمکِن تسریعُ إبراز المَرافِق و التسهیلاتِ – فی آکناف البلد - و نشرِ الثّقافةِ الاسلامیّة و الإیرانیّة – فی أنحاء العالَم - مِن جهةٍ اُخرَی.

- من الأنشطة الواسعة للمرکز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ کتبٍ، کتیبة، نشرة شهریّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقیقیّة و مکتبیة، قابلة للتشغیل فی الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثّلاثیّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّکة و... الأماکن الدینیّة، السیاحیّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتی" القائمیّة "www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِع اُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضیّة، الخَطابات و... للعرض فی القنوات القمریّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمیّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعیّة، الاخلاقیّة و الاعتقادیّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسیم النظام التلقائیّ و الیدویّ للبلوتوث، ویب کشک، و الرّسائل القصیرة SMS

ح) التعاون الفخریّ مع عشراتِ مراکزَ طبیعیّة و اعتباریّة، منها بیوت الآیات العِظام، الحوزات العلمیّة، الجوامع، الأماکن الدینیّة کمسجد جَمکرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفیذ مشروع" ما قبلَ المدرسة "الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِکین فی الجلسة

ی) إقامة دورات تعلیمیّة عمومیّة و دورات تربیة المربّی (حضوراً و افتراضاً) طیلة السَّنَة

المکتب الرّئیسیّ: إیران/أصبهان/ شارع"مسجد سیّد/ "ما بینَ شارع"پنج رَمَضان "ومُفترَق"وفائی/"بنایة"القائمیّة"

تاریخ التأسیس: ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریة القمریّة)

رقم التسجیل: ۲۳۷۳

الهویّة الوطنیّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البرید الالکترونی: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتی: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاکس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مکتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التّجاریّة و المَبیعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمین ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

المیزانیّة الحالیّة لهذا المرکز، شَعبیّة، تبرّعیّة، غیر حکومیّة، و غیر ربحیّة، اقتُنِیَت باهتمام جمع من الخیّرین؛ لکنّها لا تُوافِی الحجمَ

المتزاید و المتّسِعَ للامور الدّینیّة و العلمیّة الحالیّة و مشاریع التوسعة الثّقافیّة؛ لهذا فقد ترجّی هذا المرکزُ صاحِبَ هذا البیتِ (المُسمّی بالقائمیّة) و مع ذلک، یرجو مِن جانب سماحة بقیّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرَجَهُ الشَّریفَ) أن یُوفِّقَ الکلَّ توفیقاً متزائداً لِإعانتهم - فی حدّ التّمکّن لکلّ احدٍ منهم – إیّانا فی هذا الأمر العظیم؛ إن شاءَ اللهُ تعالی؛ و اللهُ ولیّ التوفیق.